كتب ثقافية

الجلاء

شعر

عامر محمد بحيري

8

كتب ثقافية

الجلاء

دراسة تحليلية

شعر

عامر محمد بحيري

تقديم

بقلم : محمد عطا

طالعت هذه القصة التاريخية الشعرية للاستاذ عامر بحيرى ، وأنا سعيد بمحاولته الجادة التى كنا نرقبها منذ عهد غير قريب ؛ محاولة ارتياد الشعر العربى لأوزان مبتكرة ، وميادين جديدة لم يكن له بها عهد ؛ فأنا من هؤلاء النقاد الذين يحبذون تلوين القافية فى الشعر العربى حتى تتغلب على الرتابة التى قد تولد السأم فى كثير من الأحيان ، وتتجنب الألفاظ غير المطروقة أو الثقيلة على الأسماع ؛ وبخاصة إذا اضطلع بهذه المحاولة شعراء دارسون واعون ؛ شعراء درسوا القصيدة العربية القائمة على عمود الشعر فى عصورها المختلفة ، وعرفوا مواطن القوة والضعف فيها ، ودرسوا كذلك المحاولات الجادة من شعراء العربية الذين حاولوا التجديد ؛ التجديد فى الموضوع والتجديد فى الوزن ، والتجديد فى الروى والقافية ؛ ثم لم يقفوا عند هذا الحد من المعرفة ، بل تجاوزوه إلى دراسة القصيدة الغربية ، والشعر الغربى بوجه عام وتذوقوا كل أولئك ثم انتهوا إلى معالجة الشعر العربى معالجة لا تفقده روحه التى يقوم عليها ثم هى تمده بألوان جديدة وروح جديدة .

وشاعرنا من هؤلاء الذين عرفوا القصيدة العربية حق المعرفة ، والشعر الغربى فهما وتذوقا وله رصيد فى القصيدة العربية ، وإطالة وقوف عند الشعر الغربى ، وقام بمحاولات فى التجديد ختمها بهذه القصة التاريخية الطويلة التى تروى أمجادنا وكفاحنا فى ربع القرن الأخير أو ما يزيد على ذلك قليلا ؛ الكفاح ضد المستعمر ، والكفاح ضد الإقطاع

والرجعية ؛ إنها تاريخ لهذه الفترة ، وتسجيل لأحداثها في القالب الشعرى ، وهو قالب له رواده وله محبوه ومتذوقوه .

والحق انى طالعت هذه القصة الشعرية من غير أن أحس فيها بضعف الشاعر أو تعثره بل انطلق فيها انطلاقة الشاعر المشحون بالعاطفة ، المحب لشعبه ووطنه ، الفخور بما أداه أبناء هذا الجيل من روح البذل والفداء حتى انتهى هذه النهاية السعيدة الرائعة .

والشاعر فى هذه المحاولة لم يفعل ما يفعله الشعراء الآخرون المحدثون من انتهاك لحرمة القصيدة العربية فى الوزن أو فى القافية ، بل إنه أبقى عليهما ، وإن تغلب على الوقوف عند الروى الواحد أو الجمود على الأوزان المعروفة المطروقة .

والقصة الشعرية التى بين أيدينا قد اقتصرت على سرد الأحداث التاريخية، والمواقف البطولية . ولوأن الشاعر قد عالج فترة بعينها كفترة ما قبل الثورة ، او فترة الثورة ، واستخدم الخيال استخداماً أوسع ، لكان ذلك أمتع وأروع ؛ ولو أن الشاعر قد سلك مسلك القصة الفنية النثرية بأن سلط أضواءه على جوانب من المتناقضات الاجتماعية الصارخة التى كانت فى مجتمعنا ، وما انتهت إليه من زوال فى السنوات العشر الأخيرة لبلغ القمة .

وإنى أرجو وقد رأيت القلم يطوع فى يده ، والشعر ينثال من قريحته من غير أدنى تعسف أو تعثر أو تهالك أن يرتاد هذه الطرق ، وأن يستخدم الخيال وأساليب القصة الفنية الحديثة بصورة أشمل وأعمق لتفخر المكتبة العربية بهذا اللون الطريف المستحدث كما زهت المكتبة الغربية بهذا القصص الشعرى الساحر ؛ وأنا واثق أنه سيضطلع بذلك فهو به زعيم .

ولاشك أن الدار القومية تفخر بأن تقدم إلى قرائها هذا اللون الجديد من القصة الشعرية وأن تناشد شعراء العربية أن يحاولوا محاولات جدية فى هذا الصدد .

والله الموفق والمعين ؟ محمد عطا

الإهداء

« إلى « الفَتَى المَرْمُوق » . . . . »

« الذى ورد ذكره فى هذه القصة . . »

« ع »

الجـــلاء

قصة شعرية جديدة . تروى كفاح الشعب فى مصر ، منذ ثورة عام ١٩٣٥ ، وكيف تم على يديه جلاء الإنجليز عن أرض الوطن ، وصـــد العدوان الثلاثى عن البلاد فى أخريات عام ١٩٥٦ .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

(١)

أمير الشعراء

انتقل أمير الشعراء ، أحمد شوقى ، إلى رحمة الله فى يوم الجمعة ١٤ من أكتوبر عام ١٩٣٢ . وفى صبيحة اليوم التالى (السبت ١٥ من أكتوبر) كنت أسير فى حدائق الأورمان بالجيزة ، متجها صوب كلية الآداب بالجامعة المصرية[1]، لألتحق بها لأول مرة ، إذ كان ذلك اليوم بدء عامها الدراسى الجديد . وكانت فى يدى حينئذ صحيفة « الأهرام » وقد نشرت فى صفحتها الأولى ، صورة أمير الشعراء المعروفة ، فوق كلام عنه تزخر به أنهارها ، أذكر منه بيتيه اللذين حفظتهما صغيراً ، واللذين عرّض فيهما من طرف خفىّ بنقد النقاد له ، ولشعره .. . وهما قوله :

أقولُ لهم فى ساعة الدفنِ خففوا
على ، ولا تلقوا الصخور على قبرى
ألم يكفِ همٌّ فى الحياة حملته
فأحمل بعد الموت صخراً على صخر ؟

وكان يتنازعنى ساعتئذ عاملان . عامل البساطة ، يحمل فى طياته أسى وأسفاً على الشاعر العظيم ، الذى قرأت له فى صباى الكثير ، وعامل الجد ، يحمل فى طياته أن مصادفة التحاقى فى ذلك اليوم بكلية الآداب — الذى حقق لى رغبة شخصية كبيرة — إنما كانت تعنى أنى بدأت أحمل أمانة .

---

(١) جامعة القاهرة فيما بعد .

الشعر للمستقبل . . وما أعظم إشفاقى من حملها ؟ ويردد خاطرى وقتئذ أبياتاً لشوقى نفسه ، قالها منذ فترة قريبة جداً لذلك التاريخ[1] فى احتفال وضع حجر الأساس ، فى بناء كلية الآداب ذاتها . . إذ يقول :

ما هذه الغرفُ الزواهر بالضحى الشامخات كأنها الأعلام
هذا البناء الفاطمى[2] منارة وقواعد لحضارة ودعام
شرفاته نور السبيل ، وركنه للعبقرية منزل ، ومقام
مهد تهيأ للوليد ، وأيكة سيرن فيها بلبل وحمام

(٢)

تجديد الشعر

وفى كلية الآداب ، رحت أعمل على تجديد الشعر . . وكان يحتم على السير فى هذه الطريق عوامل كثيرة . منها دراستى للشعر الانجليزى ، وفى مقدمته شعر شكسبير ، ومقارنته بمسرحيات شوقى ، التى ظهرت يومئذ ، وشغلتنى إلى حد كبير ، مما جعلنى أكثر النسج على منوالها ، فى محاولات بادئة ، كانت أولها محاولة نظم قصة « الثورة الفرنسية » بعنوان « مارى انطوانيت » . . وهو موضوع لم يكن مقدراً له أن يرى النور فى ذلك الحين !

ومنها ظهور صحيفة « أبولو » فى ذلك التاريخ ، وترحيبها بما أرسله إليها من شعر ونقد ، وما كانت تزخر به الصحيفة من إنتاج حافل ، وما كانت تشيعه فى الحياة الأدبية من حماسة ظاهرة .

وكانت مجموعة الشعر التى أصدرتها مفتتح عام ١٩٣٦ ، بعنوان : « اليخت الذهبي » تحمل طابع التجديد الذى حاولته فى تلك الفترة . .

---

(١) عام ١٩٣١ .

(٢) يقارن شوقى فى هذا البيت بين هذا البناء العلمى الشامخ ، بناء الجامعة المصرية الحديثة ، وبين ذلك البناء العلمى الشامخ الذى أقامته الدولة الفاطمية فى مصر قبل ألف عام ، وهو الجامعة الأزهرية . .

تجديد فى روح الشعر ، وفى مضمونه ، وفى قالبه أيضاً . . وكان تجديد القالب يتمثل فى إدخال أوضاع شعرية جديدة ، أظهرها هذه الأسماط (Stanza) الرباعية ، والثمانية ، والتساعية . . التى أخذتها عن بعض الشعراء . . وبخاصة تساعية أدموند سبنسر (١٥٥٢ — ١٥٩٩) التى نظمتُ فيها يومئذ قصيدة « الفيضان »[1]، وغيرها وثمانية بيرون (١٧٨٨ — ١٨٢٤) التى أسميتها كذلك لأنى أخذتها عن ملحمته « دون جوان » المعروفة . . ونظمت فيها يومئذ قصيدة « الريحانة النائمة »[2] فى رثاء شاعر تونس النابغة أبى القاسم الشابى .

كما حاولت فيما بعد إدخال نظام السونتة (Sonnet) وهو يتكون من أربعة عشر شطراً (أو بيتاً) وسميته « الصدحات »[3] لما لمسته من قرب الجرس الصوتى بين الكلمتين العربية والافرنجية ، ولما تؤديه كل منهما من معنى اللحن والغناء !

(٣)

تجديد العروض

على أن أهم ماشغلنى يومئذ من تجديد الشعر ، هو تجديد العروض . . ولست أريد أن أكتب هنا بحثاً علمياً مستفيضاً فى العروض المقارن . . ولكنى أكتفى بأن أذكر فى بساطة ، أنى لاحظت أن بحور الشعر العربى تنقسم قسمين ، بسيطة ومركبة . بينما بحور الشعر الأوربى مثلا كلها بسيطة .

ومعنى البحور البسيطة ، أن البيت يتكون من تفعيلة واحدة ، متكررة ، نحو :

مستفعلن ، مستفعلن ، مستفعلن . . فى الرجز

---

(١) البعث الذهبى (١٩٣٦) . ص ٤٥ .

(٢) المصدر نفسه . ص ١١٤ .

(٣) ديوان ثورة الشعر تحت لواء العروبة (١٩٦٠) ص ١٩٧ .

متفاعلن ، متفاعلن ، متفاعلن .. فى الكامل

فعولن ، فعولن ، فعولن ، فعولن .. فى المتدارك .. الخ.

ومعنى البحور المركبة ، أن البيت يتكون من تفعيلتين مختلفتين ، تتكرران واحدةً تلو الأخرى .. نحو :

فعولن ، مفاعيلن ، فعولن ، مفاعيلن .. فى الطويل

مستفعلن ، فاعلن ، مستفعلن ، فعلن .. فى البسيط

فاعلاتن ، مستفعلن ، فاعلاتن .. فى الخفيف .. الخ

ولما كنت قد تبينتُ تمام التبين ، أن الشطر فى الشعر إنما هو البيتُ نفسه (كما هو واضح فى الرجز المقفى فى كل شطر ، وهو أقدم أنواع الشعر العربى) . وأن البيت المعروف فى قصائدنا العربية ، والمكون من شطرين ، ماهو إلا نوع من الشعر المزدوج (Couplet) .. وذلك يظهر بوضوح أكثر فى البيت الأوربى ، الذى يسمونه سَطراً (Line) ، أى بيتا . كما يظهر بوضوح أيضاً عند ترجمة الشعر الأوربى ، إلى شعر عربى — وهو ماعالجته[1] — فيقع المعنى الوارد فى البيت الأوربى حينئذ ، فى شطر واحد من الشعر العربى .. لذلك رايت أن أول واجب نحو تجديد العروض العربى ، وجعل الشعر العربى يستوعب الموضوعات الكبيرة كالملاحم والمسرحيات ، إنما هو فى الرجوع إلى هذه الحقيقة .. وهى ردُّ بيت الشعر العربى إلى شطر واحد ، بدلا من شطرين ، لاداعى لهما[2] خصوصا مع التزام القافية فى الشطر الثانى على طول القصيدة ، مما كان مثار الشكوى الحقيقية من جمود الشعر العربى ، من حيث المعانى

(١) انظر « البعث الذهبى » ، و« المختار من الشعر الإنجليزى » (تحت الطبع)

(٢) لا يعنى ذلك أن القصيدة العربية ذات الشطرين أصبحت غير ذات موضوع ، فهى التى استوعبت تراثنا الشعرى كله على مر العصور ، وما زالت فى أيدى القادرين والموهوبين ، صالحة لاستيعاب الجديد أيضا .

والموضوعات ، على أيدى ضعاف الشعراء ، وأدعياء الشعر ، على مر العصور .

ولكن جعل البيت شطراً واحداً فى العربية لا يكفى .. لأنه لا يزيد عادة على ثلاث تفعيلات .. بينما هو فى الشعر الأوربى خمس أو ست . لذلك رأيت أن أنسب وضع للبيت العربى الجديد ، هو أن يتكون من خمس تفعيلات ، فى البحور البسيطة .. فيكون البيت الجديد من البحور البسيطة هكذا :

مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن مستفعلن (الرجز)
متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن (الكامل)
وهكذا ..

ويصعب أن يحدث ذلك فى البحور المركبة . إلا أن تكون سداسية فيكون البيت الجديدمن البحور المركبة هكذا :

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن (الطويل)
مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن (البسيط)
وهكذا ..

على أن ماحاولته فعلا هو النظم فى خماسيات البحور البسيطة[1] ، وإن كان النظم فى سداسيات البحور المركبة ممكنا . إلا أن الأول أيسر منه، وأنسب لموضوع القصة أو الملحمة[2] .

وبهذه المناسبة أذكر أن العروض العربى لايخلو من بحور مهملة . أو

(١) ملحمة « الجلاء » — وديوان « قصائد أفريقية » ، قصيدة « فى فريق » ص ٩٥ .

(٢) أنظر ديوان « قصائد أفريقية » قصيدة « القوانين الاشتراكية » ص ٩٨ ، فقد نظمت فى بحر البسيط (وهو من البحور المركبة) بطريقة أكثر تحرراً من حيث عدد التفعيلات فى كل بيت .

مقلوبة من البحور المعروفة[1]، لها أنظمة وتفاعيل، ولكنهم لم يستطيعوا النظم فيها، ولذلك لم يصل إلينا فيها شيء يذكر. لأن العبرة ليست بوضع نظام معين، وإنما العبرة هي في كون هذا النظام صالحا للتطبيق..

وهنا لابد لي أن أقول إن محاولات التجديد في الشعر العربي، وبخاصة من حيث العروض، التي ظهرت في الفترة الأخيرة (عام ١٩٥٠ وما بعده). وإن كان المقصود بها تطوير الشعر العربي فعلا، والخروج به من حيز الجمود إلى حيز المرونة والانطلاق والاستيعاب .. وإن كانت تتفق كذلك مع بعض القواعد التي ذكرتها الآن.. إلا أنها في أكثرها بحاجة إلى تصحيح وتقويم.. ومن مآخذي على هذه الحركة، تحطيم التفعيلة الواحدة، واختيار البحور الضعيفة، وعدم التقيد بالقافية أو إهمالها، مع ضعف الأسلوب غالبا، مما يجعل هذا النوع، حتى الآن، أشبه شيء بالترجمة النثرية لشعر أوربي، منه بنظم شعري مبتكر.. ولو روعيت فيه بعض الضروريات من تكامل التفعيلة، واستقامة البيت، والاعتماد على قوة القافية، مع العناية بالأسلوب، الذي هو روح العربية وريحانها.. لكان منه شيء قريب مما ذكرته الآن، وبنيته على دراسة مستأنية، واعية، أمينة على تراث العربية المجيد، وثروتها اللغوية والموسيقية الخالدة!

(٤)

الملاحم والمسرحيات

وقد ذكرت أنني تأثرت بمسرحيات شوقي، وشغلت بها إلى حد كبير، كما رحت أترجم من مسرحيات شكسبير التي كنت أدرسها يومئذ. فترجمت من العاصفة، وماكبث[2]، وأنطونيو وكليوباترا،

(١) أنظر شرح القصيدة الخزرجية الأنصارى — والعيون الفاخرة الغامزة على خبايا الرامزة للدماميني.

(٢) أنظر مجلة «أبولو» (عدد يونيه ١٩٣٣) الترجمة الشعرية للمنظر الخامس من الفصل الخامس من مسرحية «ماكبث لشكسبير».

وغيرها .. كما قمت بمحاولات خاصة ، منها « مارى انطوانيت » (١٩٣٢) ثم « الجيل الجديد » و « رسالة العدل » (وقد مثلهما طلبة كليتى الآداب والحقوق بقاعة الحفلات الكبرى بالجامعة عام ١٩٣٩) ، ثم « خالد بن الوليد » فى خمسة فصول (١٩٤٥) ، « والأمين والمأمون » (١٩٤٢ ، ١٩٥٧)[1] ، ومحاولة لم تتم عن « قناة السويس » (١٩٥٦) .

أما الملاحم ، فكانت الميدان الذى لم أجد فى حلبته من شعراء العربية فارساً ، رغم ما هو موجود فعلا فى أدبنا القديم من قصص شعرى ، ومن ملاحم أغلبها نثرى ، يتضمن فى أثنائه أبياتاً من الشعر ، تمثل حواراً بين الشخصيات .. على أنى درست فى الأدب الانجليزى ، بين مادرست ، قصصاً شعرية كاملة ، ذات فصول ، فدفعنى ذلك إلى هذه المحاولة ، التى لا أقول إنى وجدت لها نظيراً عند شوقى .. فقد نظم شوقى مثلا أرجوزة فى « تاريخ العرب والإسلام » ، فلم يزد فيها على نظم التاريخ وإنما كنت أريد القصة الفنية الخالصة .. ومن أول المحاولات التى قمت بها فى هذا الجانب القصصى ، «الساحرة» ١٩٣٦[2] ، و «يوسف الصديق» (١٩٣٨) ، و « الحمامة البيضاء أو سفينة نوح » (١٩٤٢) ، « وإيزيس وأوزوريس » (١٩٤٤)[3] ، و « أمير الأنبياء » (١٩٥١)[4] .

---

(١) كانت المرة الأولى عام ١٩٤٢ محاولة للتجديد ، إذ نظمت المسرحية فى بحر خماسى التفعيلات من الرمل ، وقدمتها لمسابقة فى وزارة الشئون الاجتماعية فلم تفز ، ثم قمت فى المرة الثانية بإعادة نظمها على طريقة شوقى ، وقدمتها لمسابقة فى وزارة التربية والتعليم ففازت بجائزة التأليف المسرحى عام ١٩٥٧ .

(٢) نشر فصل من هذه الملحمة بعنوان « الحمامة البيضاء » خطأ فى صحيفة الجهاد عام ١٩٣٦ .

(٣) نشرت ملحمة إيزيس وأوزوريس كاملة لأول مرة ضمن ديوان « ثورة الشعر تحت لواء العروبة » عام ١٩٦٠ .

(٤) أعقب هذه الملحمة البدء فى نظم ملاحم اسلامية تاريخية ، وهى : آدم وحواء ، وسيوف السماء ، وشهيد كربلاء .. ولم يتم نظم واحدة منها بعد .

(٥)

غزوة القصة في الشعر العربي

على أن هناك فرقاً كبيراً بين نظم التاريخ ، ونظم القصة المستكملة لقواعد الفن القصصي وشرائطه . وبالرغم من ان بعض محاولاتى التى ذكرتها ، ربما يعد من نظم التاريخ ، مثل ملحمة « أمير الأنبياء » التى كان جلالُ موضوعها ، وشخصية البطل فيها ، مما يدعونى للاقتراب ما أمكن إلى حوادث التاريخ ، بل إلى تحرّى الصحيح منها دون الموضوع . . إلا أننى فى محاولات نظم الملحمة بصفة عامة ، كنت أهدف إلى نظم القصة الشعرية الفنية ، ما أمكن ذلك[1] . . فكانت قصة « الساحرة » وقصة « الحمامة البيضاء » مثلا ، خيالا محضاً . كما استندت قصة « إيزيس وأوزوريس » إلى الأساطير المروية فى هذا الشأن ، اخترت منها ما يناسب البناء القصصى الذى أردته ، وتركت مالا يتسق معه[2] .

ومع ذلك فإن واحداً من النقاد المعاصرين ، تعرض للملحمة « أمير الأنبياء » بالنقد . وتعرض بخاصة لهذا الشعار الذى وضعته عليها ، وهو عبارة « غزوة القصة فى الشعر العربى » . . فقد ذكر الناقد أن هذه

---

(١) فى بدء اتصالى بالحركة الأدبية أخذ زملائى من شعراء الشباب يتحولون إلى كتابة القصة واحداً بعد واحد . ونصحنى بعضهم بذلك ، لأن القصة عمل أجدى وأوفر ربحاً من الشعر ، إلا أننى آثرت الإخلاص لرسالة الشعر مدى الحياة ، ومن ثم أخذت فى تطوير هذه الرسالة حتى شملت القصة والملحمة والمسرحية ، وهو الميدان الذى رأيته ألزم لتطوير الشعر العربى وتجديده من سواه .

(٢) اخترت أن تنتهى القصة بمعركة نزالية بين حوريس وطيفون ، تختم بموت الأخير وهو إله الشر . بينما اختار الأستاذ توفيق الحكيم فى مسرحيته « ايزيس » إنهاء القصة بمنظر المحاكمة . وكلا الاختيارين مناسب لموضوعه فى رأيى ، فالملحمة المقروءة يناسبها منظر الحرب والقتال ، بينما المسرحية التمثيلية يناسبها منظر المحاكمة أكثر ، لسهولة الحركة والأداء على خشبة المسرح .

الملحمة الشعرية «عمل لم يسبق به أحد».. وأن صاحبها «قد اختار الطريق، طريق الفن، بل القصيد على وجه التحديد.. كما اختار الإطار، إطار الملاحم.. واختار طريقاً وعراً، يبلغ فيه رسالته من ناحية، أو يحقق نصراً فنياً من ناحية أخرى..» وقارن بين طاقات الشاعر في هذه الملحمة، وبين خيال هوميروس، وشطحات دانتي، وتصوير المعري.. وخلص إلى أن الملحمة «لا تعوزها مهارة الفنان، ولا القدرة على الصياغة بل ربما تسمو في كثير من أجزائها إلى مستوى شوقي، إن لم تعدُه»... كما أشار إلى الشعار فقال «إن الملحمة نظمت في شكل لم يكن من الأشكال الكلاسيكية... وإن اتخذ القصيد القديم بعض ملامحه... فليس عجيباً أن يضع في قمة كتابه هذا الشعار «غزوة القصة في الشعر العربي»... فهو فتحٌ إذاً... انتصار!!» وانتهى أخيراً إلى ترديد قوله بأنها «عمل له فضل السبق»... وأنها «لبنة ستبقى إلى الغد.. وللغد حكمه الأخير!»[1]

(٦)

قصة الجلاء

ذكرت أنني قمت بمحاولات لترجمة بعض مسرحيات شكسبير إلى الشعر العربي.. كما قرأت كثيراً من القصص الشعري الانجليزي.. وأذكر هنا أنني قمت كذلك بمحاولات لترجمة بعض هذا القصص، ومنه قصة «الخصلة الذهبية»[2] لتوماس أرنولد، التي قمت بترجمة شطر كبير منها، في بحر الكامل، تتغير فيه القافية كل أربعة أبيات.. وكان ذلك في عام ١٩٣٥، ثم عدت بعد سنوات أحاول إعادة نظمها

---

(١) «محمد في الأدب المعاصر» لفاروق خورشيد، وأحمد كمال زكي. ص ١٣٧ وما بعدها. والنقد للدكتور أحمد كمال زكي، الذي اختص بدراسة الشعر في ذلك الكتاب. هذا وقد ذكر الدكتور أحمد كمال زكي. أيضاً في مقدمته لديوان «قصائد أفريقية» (١٩٦٢) أنه «لا سبيل إلى فهم عامر بحيرى أصلا إلا بدراسة ملحمة أمير الأنبياء»!.

(٢) «حياة جيسون ومماته»، لتوماس أرنولد.

فى بحر الرمل، خماسى التفعيلات ، ثنائى القوافى .. ثم تركت العملية ، دون أن يتم أحدهما ..

ثم رضيت عن طريقة وسط ، تنظم فيها القصة ، فى بحر واحد ، وتتغير القافية كل عشرة أبيات .. مع اختيار بحر لكل ملحمة .. وفى هذه الطريقة نظمت أكثر الملاحم . «فأمير الأنبياء» فى الوافر ، و «إيزيس وأوزوريس» فى البسيط .. والملاحم الإسلامية على هذه الطريقة أيضاً .. أما «الساحرة» ، فكانت تتغير قافيتها كل أربعة أبيات .. وأما «يوسف الصديق» فكانت أشق هذه الأعمال ؛ إذ كانت لا تتغير قافيتها أصلا ، وقد بلغت فى نظم هذه القصة إلى منتصفها .. أما خير هذه الأعمال جميعاً ، فى نظرى ، فهى ملحمة «الحمامة البيضاء أو قصة نوح» .. إذ كانت تجرى على بحر الرمل ، وتتكون من أصماد تطول أو تقصر على حسب الحاجة ، كما تقع فى داخل الصمد الواحد أبيات قصيرة متباعدة تباعداً منتظما ، يحدث الوقوف عندها نغماً موسيقياً داخلياً ..

ويأتى أخيراً دور قصة «الجلاء» .. التى يراها القارىء فى هذا الكتاب .. وأعتقد أنها تعتبر من حيث أسلوب نظمها «قمة» فى هذه المحاولات التى مررت بها فى تريث وصبر ، مدى سنوات طويلة .. وهى فى أيسر وصف لها قصة منظومة فى بحر خماسى التفعيلات ، من الكامل ، وهو من أسهل البحور نظما ، وأقدرها على استيعاب الموضوعات المتصلة ، وأسماء الأشخاص والأماكن .. والقافية تتغير فيه أصلا كل بيتين ، ولكن هذا ليس قيداً ، فهى أحياناً تزيد إلى ثلاثة أبيات ، ثم هى أحياناً تسترسل إلى أكثر من ذلك ما شاء لها الاسترسال ، ولن يكون ذلك إلا مجاراة للنغم الجليل الذى استساغته الأذن العربية على مر العصور .. ففخامة الشعر العربى فى فخامة موسيقاه ، وهذه الفخامة فى الموسيقى آتية من ناحية القافية ، وما يحشد لها من ألوان النغم ، وما يشدء لها من

أوتاره .. والبحر بعد ذلك يستوعب الحوار استيعابا تاماً ، كما يستوعب الوصف ، والانتقال ، والتسلسل المنطق ، والسرد القصصى ، والأسماء القديمة والحديثة على السواء ..

ويمكن أن يقال فى إيجاز إن قصة « الجلاء » ، قد نظمت فى بحر مبتكر ، لا يبعد عن أصول العروض العربى ، ولا يكاد يختلف عن نظائرها فى القصص العالمية الكبرى !

(٧)

موضوع قصة الجلاء

للحديث فى موضوع هذه القصة جانبان ، جانب الفن ، وجانب التاريخ ..

وأبدأ بجانب التاريخ .. وهو يتمثل فى هذه الأحداث السياسية التى جرت فى مصر بين عامى ١٩٣٥ ، ١٩٥٦ .. فبين هذين التاريخين جرت أحداث هائلة ، يكفى أنها تمثل جيلين مختلفين تمام الاختلاف ، يفصل بينهما يوم خالد فى تاريخ الزمن (هو يوم الأربعاء ٢٣ من يولية عام ١٩٥٢) وهو يوم انطلاق الثورة .. ولما كانت الحرب الإيطالية الحبشية عام ١٩٣٥ نذيرا بقرب وقوع حرب عالمية ثانية ، فقد أحس المصريون بأن الفرصة يجب ألا تفلت من أيديهم هذه المرة ، كما أفلتت عقب الحرب العالمية الأولى .. وبدأ شباب الجامعة يتصدرون الصفوف ، ويتعرضون لرصاص الإنجليز ، وتساقط منهم الشهداء .. ولكن الحزبية البغيضة قضت على هذا الجهاد الشريف تحقيقا لمآرب شخصية رخيصة ... ولم يلبث الشباب أن جدد حركته .. وكانت الدعوة الجديدة لا تعتمد على الأحزاب ، ولكنها اعتمدت لأول مرة على منطق سليم ، هو منطق القوة ، منطق السلاح .. وهى اللغة التى لا يفهم المحتلون غيرها .. بدأت هذه الحركة فى داخل الجيش .. وبدأ الشباب

المتحمس فى داخل الجيش وخارجه يتصيدون جنود الإنجليز ، أفرادا وجماعات .. وبدأت تنتشر خلايا هذه الحركة التحررية الكبرى . التى انتهت بقيام الثورة ، عام ١٩٥٢ ، ثم إسقاط الملكية ، وإعلان الجمهورية ، فى العام التالى ١٩٥٣ . بينما واصل الفدائيون محاربة جنود الاحتلال قبل عام الثورة ، وبعده ، حتى انتهى الأمر بمعاهدة الجلاء (عام ١٩٥٤) الذى تم فعلا ، وغادر آخر جندى انجليزى أرض الوطن فى بور سعيد فى شهر يونية عام ١٩٥٦ . ثم حدث فى الشهر التالى (يولية ١٩٥٦) أن أعلن قائد الثورة ، تأميم قناة السويس ، وبذلك تعرضت البلاد مرة أخرى للعدوان الثلاثى الغاشم ، الذى صمدت له فى بطولة أذهلت العالمين . وانتهى الأمر بانسحاب المعتدين ، وتثبيت دعائم الاستقلال ، الذى أعقبه الانطلاق نحو الأهداف العربية الكبرى ..

وأما جانب الفن .. فيتمثل فى أن هذه الملحمة إنما هى عمل فنى ، وقصصى خالص ، وإن كان يظهر فى بعض فصولها أنها تصور أحداثا واقعية من تاريخنا القريب فعلا ، لا يخطىء تبينها أحد ممن عرفها أو شهدها .. إلا انها كتبت فى الواقع كتابة فنية متحررة من كل القيود والالتزامات .. فهى قصة مبتكرة .. وأفرادها كلهم من خلق المؤلف .. وليس فيهم شخصية واحدة لها نظير فى الوجود الخارجى .. وإن كانت الحبكة القصصية تجعل من الممكن أن يكون كثير منهم قد عاش فعلا تلك الفترة ، وجاهد فيها ، وشارك فى أحداثها على هذه الصورة أو تلك .. وحسبها نجاحا من الناحية الفنية ، أن تكون قد أعطت صورة صادقة للمجتمع فى مصر ، وصورت فعلا بعض أفراده وأبرزت جوانب من حياتهم ، فى الفترة التى شملتها الأحداث .. ولا تقتصر هذه الصورة على الجانب السياسى فقط .. ولكنها تصور الحياة الجامعية الناشئة فى مصر ، كما تصور بعض مشكلات المجتمع ، وغير ذلك من شئون العقل والعاطفة ، وحياة الريف والمدينة ..

(٨)

كلمة أخيرة

ولقد نظمت هذه الملحمة بين شهرى مارس وسبتمبر ، من عام ١٩٦٢ ، وتماءلت فى ذلك بشيئين ..

فهى بهذا التاريخ تنظم على رأس عشرة أعوام من قيام الثورة المباركة ، التى كانت فيصلا بين الحق والباطل ، وبين النصر والهزيمة .. والتى لولاها لما تحقق « الجلاء » .. وهو أمنية الجيل السابق ، وواقع الجيل الحاضر .. وهو صلب هذه القصة ، والأساس الذى بنيت عليه فكرتها .. كما أنه لولاها لما أمكن تصوير بعض الأحداث بصورة متحررة واقعية ، فكثير مما ورد فيها كان مما يهمس به أهل الجيل السابق ، وعما كان الجهر به سببا فى الزج بهم فى أعماق السجون والمعتقلات !

وهى بهذا التاريخ تنظم على رأس ثلاثين عاما من وفاة أمير الشعراء أحمد شوقى ، الذى كانت وفاته فى يوم التحاقى بالجامعة ، مصادفة تعنى بالنسبة إلى حمل أمانة الشعر للمستقبل ، وهى الأمانة التى أشفقت من حملها بالأمس ، والتى أرجو أن أكون قد أديت بعض نصيبى منها اليوم فأرضيت بذلك روحه فى عليين .

وحسبى فى سبيل حمل هذه الأمانة مالقيت من عنت شديد . وحرب خفية وظاهرة ، طوال هذه السنوات ، من قصيد تسرق أصوله ، وعداء تنشر فصوله .. وجهاد تطوى صحائفه ، وحقد تطلق قذائفه .. وحب يقابل بإنكار ، وتقدير يواجه باستهتار .. وعمر تنقضى أيامه وزمان تخطىء أحكامه .. وسرار وهمس ، مع طول وقوف ، وتأخر بين الصفوف .. فلولا إيمان بالله يضىء للمؤمن ظلمة القبر ، وتواص مع

النفس بالحق وتواص بالصبر .. لماضت العزيمة ، وحلت العاقبة الأليمة .. ولكن فضل الله السابغ ، وكرمه البالغ .. قد أوفيا على الغاية ووصلا — بإذن الله — بين مؤمل البداية وموفق النهاية ..

حسبي فى سبيل حمل هذه الأمانة ما لقيت ..

وعهدى أن أبقى وفيا لرسالة الشعر ما حييت !

عامر محمد بحيرى

ملحمة الجلاء

(١)

آبـاء وأبنـاء*

وقفت بشطِّ «الجعفرية»[١] .. والغروبُ على جلال المشهدِ
والسحبُ أقطاعٌ هنا وهناك .. بين مسنجب ، وموردٍ[٢]
وقفت تحدث نفسها .. والصدرُ يعلو تحت سمطِ زبرجدِ .
وتلفتت من حولها ، كغزالة . . وتهيأت للموعد . .
والثوبُ أبيضُ ناصعٌ .. رقصت عليه فصوصهُ الخضراءُ[٣]
والقرط يلمع ، والشعور سبائكٌ ، تزهو بها الحسناءُ . .
جذلانة بلقاء من تهواهُ ، لولا مُحرقةُ الأحزانِ . .
لوشيك توديع ، وقرب تفرُّق . . فالدمع فيضُ جمانِ !

* * *

ورنت إلى الأفق البعيد . . وللحقول عبيرُها النشوانُ .
والشمسُ تغربُ .. والزهور اليانعات على الرُّبى ألوانُ ..
وبدا لها شبحٌ ، يسير على الطريق ، محاذراً ، متلفتا . .
خفيت ملامحه لناظرها . . وقال القلبُ :
« ذاكَ هو الفتيَ . .

---

(١) الجعفرية ، اسم الترعة التي كانت تجرى بالقرب من مدينة طنطا ، وتروى هذه القصة أن هناك قرية صغيرة تحمل نفس الاسم تقع على شطها ، وقد دخلت فيما بعد في حدود المدينة مع امتداد العمران .

(٢) أي السنجابي والوردي ، وهو من وصف السحاب عند التقائه بالشفق الأحمر لدى الغروب .

(٣) الضمير في « فصوصه » يرجع إلى سمط زبرجد ، في البيت الأسبق .

هو فارسُ الأحلامُ ! . .

والتقيا هناك لساعة أو شيعها[1]

أرأيت «أحمد» فى نضير شبابه . . و«سعادة» فى رَيْعها؟[2]

كان الحديث خليط أفراحٍ ، وأحزانٍ ، وجد صارمٍ . .

ضدَّان يجتمعان فيه ، حُلم يقظان ، ويقظةُ حالمٍ . .

قالت له فى رقة :

«سأعيش بعدك فى الحياة بمفردى

سأعيش بالذكرى ، وأرقب من وفاء الدهرعودةَ أحمد . .

ولسوف تذهب أنت . . سوف تعيش فى لجج الحياة الباهره

ستعيش فى نور المدينة . . حيث تبهرك العيون الساحره . .

أخشى الذى يخشاه قلبي . . أن تميل إلى بنات القاهره ! »

وبدا على وجه الفتى جدٌ ، مكان طلاقة وتبسمٍ

وبدا على وجه الفتاة الحزن ، حزن ملاحة وتجهم . .

ومضى يطمئنها ، فقال لها :

« ثقى فى قوتى وإرادتى

مالى سواك سعادة . . مهما لقيت ، فأنت أنت سعادتى ! »

وتبادلا نظر العتاب ، وأقبلا نحو البيوت الصامته

تركا بشطّ الجعفرية عهد حبّ . . من شفاه خافته . .

وعلى الطريق تفرّقا . . فمضت لمنزلها كظبي راتع . .

ومضى الفتى الموعود «أحمد» . . يستحثُّ خطاه نحو الجامع!

* * *

عشرون صنبوراً ، تصبُّ الماء عذباً ، نوره يتضوأ

فى أربعين يداً ، شيوخاً أو شباباً . . أقبلوا فتوضئوا !

ومضوا تباعاً يسرعون . . فهل رأت عيناك أحمد يسرع

(١) شيعها ، أى نحوها .

(٢) فى ريعها ، أى فى ريعان شبابها .

والماء يقطر منه ، والمصباح نورٌ فى العيون مشعشع ؟

حتى إذا قضيت صلاة الجمع ، واصطخبت رحاب المسجد

وتقدموا نحو المقام .. رأيت أحمد فى المقام الأحمدى . .

فى السيد البدويّ ذى الأنوار ، فى الورد النضير الأعطرِ

والسيل متصل الطواف ، يفيض بين مهلل ومكبر ..

واندسّ أحمد فى الزحام ، وأمسكت يمناه بالحلقاتِ . .

ومضى يناجى ربه ، بين الجموع ، بخالص الدعوات . .

يدعو الاله ، ويستعين بفضله ... وإذا بشيخ أبيض .

كالفارس الحرّ الملثمِ ، والجواد مهيأ للمركض . .

لم يدرِ حين بدا له . . هل راح يغمد سيفه أم ينتضى ؟

لكن تطلع نحوه . . فأحسّ برداً خالصاً فى صدره

وأحسّ إيمانا عميقـاً ، مثلجاً منـــه فقائر ظهره :

ورآه يدنو منه مبتسما ، وطلعته كبدر أشرقا . .

واللحية البيضاء ســـائلة .. تحدث بالمهابة والتقى

وتكلم الشيخ الجليل ، فقال :

ـ أهلا ، مرحباً يا أحمد . .

لا تشك منذ اليوم هماً طارقاً ، فلسوف يرضيك الغدُ

قضيت حوائجك العزيزة كلها ، ما دمت فى باب النبي !

ستنال ما ترجوه من علمٍ ، ومن مجد ، ورفعة منصب ..

ولسوف ترحل فى البلاد .. ترود خافيها ، وتعرف أهلها ..

ولعلّ مصر على يديك ستستقلْ .. لعلها ، ولعلها ..

لكن حذار من العدا .. وحذار ثم حذار من كيد العدا

الإنجليز ! فإنهم فى مصر شرٌ من استبدّ أو اعتدى :

إنى ارى جنديّهمْ .. وأرى مسدّسه إليك مصوّبا ..

الله يلعنـــهُ ، ويخذله ، ويثنيه الغـداة مخيبا ..

ومن العدا ينجيك !»

وابتلع الزحام الشيخ ، والوجهُ اختفى ..
واجتاحت الأمواج أحمد فى الطوافِ ، ولاح باب المصطفى !

* * *

وهناك فى بيت فسيح رحبه ، كان اللقاءُ الصاخبُ
جلس الضيوف بهو الاستقبال .. كلُّ الجالسين أقاربُ !
الجدُّ ، شيخ لم تهادنه السنون .. على العصا يتوكأ ..
فى قلبه عطفٌ ، وفى عينيه نورٌ مشرقٌ يتلألأ ..
واللحية البيضاء تشملهُ .. وتلتفُّ العباءة حولهُ ..
وحديثه شهدٌ .. فكلُّ الجمع إنصاتٌ ليسمع قولهُ ..
والعمّ عبد الله .. أستاذ الشريعة فى المقام الأحمدى ..
وبجنبه جلس «الدّرينى» .. الابنُ .. وهو مجاورٌ فى المعهد..
والشيخ نور الدين .. شيخ الجعفرية .. ذاك والد أحمد
مَن كان حلَّ لتوِّه فى الدار .. بعد صلاته فى المسجد ..
ليعدّ عدته إلى سفرٍ لمصرَ .. مع الصباح الباكرِ
فالآلُ بين مشجع ، ومودع ، ومناصح ، ومسامر ..
حبًّا له ورعاية .. فغداً سيصبح طالباً فى الجامعه !
وتكلم الشيخ الكبير .. فكلهم أذنٌ إليه سامعه ..

قال :

«اسمعوا من قصتى طرفاً .. لقد أدركت عهد عرابى ..
والهوجة الكبرى .. أخوض الموت .. بين مدافع وطوابى ..
إذ أجمع «النذلُ» الخيانة ، وانضوى تحت اللواء «الغادرِ»[1]

(١) الغادر مرفوع تابع للنذل ، وكلاهما صفة لموصوف محذوف والمقصود به الخديو توفيق الذى انضم للانجليز وخذل جيش مصر فى تلك المعركة .

وأتت جموع المعتدين ، فردَّها للشعب جيشٌ ظافرُ ..
وبدت أساطيل العدو ، يقودها سيمور .. ذاك الأحمقُ ..
ويقول والمنظارُ فوق المقلة العوراء .. هيا أطلقوا ..
حتى إذا صمدت دمنهور العظيمة .. والعدوُّ تقهقرا ..
جعل الخداع وسيلة ، فغزا من الشرق المدائن والقرى ..
وأعانه « دلسبس » ، فانتهك القنال ، وكلَّ عهدٍ مبرم ..
فلو أنها ردمت بلغنا النصرَ .. إلا أنها لم تردَم ..
وهناك فى التل الكبير ، جرى قتالٌ بالسلاح الأبيضِ ..
وتلاحم الجيشان ، فى يوم علينا مثله لم يفرض ..
لا تعجبوا ، وتكذِّبوا .. فلقد شهدت الحربَ فى إبانها
كانت بكفى البندقيةُ .. لا تغيبُ .. بنارها ، ودخانها
ومدافع الأعداء تطلق نحونا ، لكننى سددتها ..
وأصبت جنديين ، صدتهما بها .. مثل الحمامة صدتها ! »

* * *

وتمايلَ السمار إعجاباً .. وقال له هنالك أحمدُ
« يا جدُّ ! هذى ذكريات الأمس ، وهى كريهةٌ لا تحمدُ
إن كنتمُ قصرتمُ بالأمس فى حق الحمى . فلنا الغدُ ..
فلو اننا كنا هنالك يومها ، يا جدُّ ، كنا نقتحم ..
لولا نكوصكم على الأعقاب .. ماصرنا مؤخرة الأمم ..
وأظنُّ أنك لا العدوَّ أصبت منه .. ولا الحمامة صدتها ..
لكنها هى نكتةٌ ياجدُّ .. فى أخرى الحديث .. أردتها ! »

فتبسم الشيخ الكبير وقال :

« ياولدى ! هداك الله ..

أترى الجنود مقصرين ؟ »

فقال نور الدين :

« يا أبتاهُ ..

هذا الفتى غرٌّ .. سيعلم فى غـــــد علم الحمى وشئونه

هو مثل أنداد له .. بالله دعه لجهله وفتونه !

الانجليزُ اليوم أقوى دولة فى الأرض .. ماذا نفعلُ ؟ »

واحتد أحمدُ .. قال :

« نطردُهم ! »

فقال أبوه ..

« أنت مغفل !

الانجليز ؟! ألا ترى ؟ ربعَ البسيطة أصبحت أملاكهم ؟

قد أنشأتها امبراطورية .. أخلاقهم ، وسلوكهم ...

هل تدرس البلدان ؟ »(1)

قال :

« بلى ! »

فقال أبوه :

« انت مخيبُ !

أفما علمتَ إذا بأن الشمس عن أملاكهم لا تغرُبُ ؟ ! »

فأجاب أحمد :

« ذاك الاستعمار ، يا أبتاه .. تلك القرصنة ! »

وهناك همّ أبوه من غضب عليه وثورة أن يلعنه ..

وتدخل العم الشفيق ، فقال لابن أخيه قولا لينا

وإلى الدرينىُّ الصغير ، وشـــــام(2) أمراً لايراه هينا

وأهاب عبد الله بالفتيين :

« يا ولدىَّ ! لا تعجلا

---

(1) علم البلدان هو علم الجغرافيا .

(2) شام ، أى توقع ولمح فى الجو من بعيد .

الـكل يكره الاحتلالَ ، من الذى لبلاده يرضى البلا ؟
لـكننا ، لو تعلمـــــان ، لأمرنا ومعاشنا نتحايل ..
نبدى الرضى حيناً ، ولـكن عن حقوق الشعب لا نتنازلُ ..
أرأيتما للسنديانةِ والسنابلِ .. فى مهبِّ الزوبعة ؟
ما مال عاد مع النسيم .. وما أبى لم تحتشم أن تقامعه !
وأبوك ، أحمد ، وهو شيخ الجعفرية ، وهو عمدة خطها
لابد يصطنع الدهاء ، لـكى يشيدَ داره فى شطها ! »

* * *

وتضاحكوا ، وتغامزوا .. ومضى رخيا بعد ذاك السامرُ
ومضى يفكرُ أحمد فى باكر ..
« ماذا يخبىء باكر ؟ ! »
وتـكلم الشيخ الـكبير ، فقال :
« أحمدُ ! إن بلغت القاهره
فوصيتى لك يابنى ، هى الصلاة .. مع الأئمة حاضره !
وزيارة الأقطاب .. فهى لجلب دنيا ، أو سعادة آخره !
إن كنت فى طنطا تزور « صباح » أو تمضى إلى « شيخ العرب »
فهنالك الأقمار تسطعُ .. أين من أنوارها لمح الشهب ؟
فى مصر شيخ الأولياء .. بها الحسين .. لعله لك ينظرُ
وهناك زينب ، أو نفيسة ، أو سكينة .. والمقام الأطهر
والسيد الدرديرُ والفوال .. والقطب الـكبيرُ الأنور .
وأبو السعود هناك فى الصحراء .. عما شئت لا يتأخر .. »
قال الفتى :
« من غيرهم ياجدُّ ؟ قل لى .. إنما هم أكثر ! ! »
وتضاحك السمارُ ، وانتبهوا ..
فقال الجدُّ وهو يفكرُ

« الأزهر المعمور .. فيه النور .. فيه قطب مصر الأكبر ! »

قال الفتى :

« ما فيه قطبٌ .. إنما هو لو علمتَ الأزهرُ ! »

فأجابه الشيخ الكبيرُ بحدة :

« أنا صادقٌ ، لا أمترى

عال من الأقطاب مدفون بساحته .. يسمى الأزهرى ! »

(٢)

ثورة الشباب

جلسَ المسافر فى القطار ، وصافحت يمناه كلَّ مودعِ
وجرى به عجـلا .. وأسرعت الخواطرُ كالقطار المسرعِ
لم يلتفت لزحام ركاب حواليـه ، وصـوت صاخبِ
وحقائبٍ بين المقاعـد ، فى تراكمهـا ، وفوق مشاجبِ ..
ومناظرٍ للريفِ ، يرسمهـا له الشبَّاكُ خلف زجاجهِ
والنيل ، إذ عبر القطار عليـه ، وهو يخبُّ فى أمواجه ..
والجالسين أمامه ، والرافعي أصواتهم من خلفـه
والغادة الهيفاء .. ذات الحسن ، يعجز شاعرٌ عن وصفه !
ذهبت به الأفكارُ ، حين مضى القطارُ ، مذاهباً ، ومذاهباً
نهبَ القطارُ الأرض ، لكن فكرُهُ للبُ كان الناهبا
ومضى يفكر فى أبيه ، وفى مقالتهِ ووزر كلامهِ ..
هذا هو الجيـل الذى رضى احتمال الذل من حكامه !
هذا هو الجيـلُ الذى فتح الطريق لمستبد غاصبِ
المستهينُ بكل مايجرى .. فمـا من ثائر ، أو غاضبِ !

ومضى يحدثُ نفسه ، ويقول :

« مامن ثائرٍ ، أو غاضب ؟!
رباه ! هل أخنى علينا الذل ، أم فرضت علينا المسكنه ؟
رباه ! إن الحرّ لا يرضى بأن تطأ الغواصبُ موطنه !
لولا هزيمةُ جيشنا بالتلّ .. بل لولا الخديعـة بيننا

لولا الخيانة .. لم يكن للإنجليز بمصر روض يجتنى!
لكنهم بخيانة الضعفاء منا ، والدسيسة أقبلوا
وإلى مرافقنا ، وكل شئوننا . كالأخطبوط تسللوا ..
الجيش سرّحه الطغاة ليأمنوا طول المدى وثباته
والشعب فى السجن الكبير تكنفوه من جميع جهاته
لاجيش ، لا تعليم ، لا أخلاق ، لا آمال يشرق نورها ..
ذلت وهانت أمة ، بيد الدخيل الأجنبي أمورها !
والجالس التركى فوق العرش .. من ذاك الدعى ؟ من الصنم ؟
هذا الخديوى الذى صرنا به أضحوكة بين الأمم ..
لابل هو اليوم الأمير المفتدى . لابل هو اليوم الملك ..
هذا الذى فى شعبنا المنكوب أصبح يستبد ويمتلك ! ،

* * *

وأحس أحمد أنه بلغ الذرى فى حسه وشعوره
ورأى الخطورة كلها عقبى الجرىء الفذ من تفكيره ..
لكن .. لماذا خاف ممن يجلسون أمامه . ووراءه ؟
هل يسمع التفكير ؟ أم هل يقرأ القوم الجلوس إزاءه
فيض الخواطر وهى تعبر ذهنه فى سبحها . وطوافها ..
كبحيرة ألقى الرجال شباكهم للصيد فوق ضفافها ؟!

* * *

سنحت هنالك لفتة منه لقوم حوله جلساء
للشيخ ، للأم العجوز لزوجها ، للغادة الحسناء
هم قادمون من القرى والريف .. لكن لايشك بأنها
جاءت من الإسكندرية والمصيف .. فيالها . ياحسنها !
لكن أحمد وهو من بيت له أخلاقه وأصالته ..
لم يندفع فى غيه نزقا ، ولم تغلب عليه جهالته
بل راحت الأفكار تغمره كلج البحر فى إزباده

ومضى يفــكر فى الذى هز الجامع من شــئون بلاده
فى المرأة المصرية العصماء . بين ســفارة وتحجب
شتان ماريفية فى الحقل .. أو حضرية فى المكتب ..
هذى هى البكماء من جهل .. وتلك لطيفــة ومحادثه ..
هذى فتاة الريف جاهــلة .. وتلك عن الحقيقــة باحثة !
واجتاحــه ، فأشاع فى النفس السرور . له شــعور غامرٌ
وبدا كوجه الشمس مابين النجوم من الخواطر خاطرُ
ومضى يحدث نفســه ، والنفس من فرح إليــه سامعه
ويقول :
« بعد غد ، تكون معى ، هناك ، زميلة فى الجامعة »

* * *

وأتى صباحُ السبت . . والتقت الألوف من الشباب الناضر
فى ساحة الحرم المقدّس ، يقبلون مــع الصباح الباكر . .
يتوافدون على الحمى ، بين الحدائق ، كالخضم الزاخر .
فتجمعوا ، وتحــدثوا فيما يخصّ نفوسهم ، وبلادهم
بدأوا لأجل العلم ، واستقلال مصر مع الشروق جهادهم
ورأيت أحمد بينهم متحفزاً ، وكتابه بيمينه
يخطو هناك إلى المدرّج فى رزانته ؛ وحرٌّ جبينه . .
وبجنبه سعدٌ ، وإبراهيم ، وابن الجابرىّ ، ومصطفى .
ووراءهم عيسى ، ومحمود الشريف ، وصابرٌ ، وأبو الوفا . .
وهدى ، وبشرى . . .

هل سألتَ :
« ومن ترى بشرى تكون ، ومن هدى ؟ »
هذا سؤالٌ قد أصبتَ به الصميمَ . . فلن أضيعَــهُ سُدَى . .
كانت هدى هى عينُ صاحبــة القطار . . . فكم تعجب أحمدُ
الآن . . هاهى ذى . . يبادلها الحديث . . وخدُّها يتوردُ . .

خرجت وبشرى للجهاد ، زميلتين . . . أصابتا عـــين المنى
وطليعةً للنابغات . . بدأنَ تحقيق المطالب من هنا[1] . . .
وكفاهما سبق الزمان ، والانفرادُ على الطريق إلى العلى
بين الشباب ومثلهُ . . ليكون للوطن اللواتى كالألى !

* * *

وتقدم الأستاذ فى سَمْت الوقار إلى المدرَّج . . . وارتقى
دَرَجَ المنصةِ . . . واستقام له البيانُ فصاحة أو منطقا
يمضى المحاضر ، أو يجىء سواه . . . ذاك هو الجهاد المتصل . .
ومعارك التفكير محتدمٌ لظاها ، كالأتون المشتعـــل
هـــذا أديبٌ عن شئون الفكر عند أبى العلاء يحاضرُ
القول فصل ، والخواطر ثرة . . . والصوت عذبُ ساحرُ
ومسجل الأحـــداث عن مصر العتيدة ناقـــدٌ ومؤرخ
يكسو الحوادث حرٌّ منطقه ، فيثبت ما يشاء وينسخُ
والأجنبى محـــدِّثٌ عن شكسبير . . . سمت به أشعاره
والفارسىُّ محلقٌ فى الشاهنامةَ . . . لا يشـق غبارُه
وصحائف الحكماء يجمع لفظها بين الطرافة والقِـدَم . . .
ومعارك الغدُرِ الصنيبيين قائمة هناك عـــلى قَـدَمْ . . .
هل أبصرت عيناك أحمد . . . بينْ قاعة بحثهِ والمكتبه
فى ذلك الجو المثقف ، والحياة إلى النفوس محببه . .
ودم الشباب يفيض ملتهباً ، وتنبض باليقين عروقه
والشعب . . يأمل أن ترد على يدى هذا الشباب حقوقه ؟

* * *

فى ذلك الجو الملبد ، والخطوب على الحمى تتتابع
والمستبد بروما[2] . . يشتطُّ فى طغواه ، لا يتراجع

---

(١) ضمير جمع المؤنث فى بدأن يعود على النابغات .
(٢) السنيور بنيتو موسولينى .

والأسمر الحبشي . . في الأحراش ناء يستعد لمعركه ،
من للرجال « بعدوة »[1] أخرى ؟ ولكن الصفوف مفككه
في كل يوم بالقنالِ تمر باخرةٌ ، وترجع باخره . .
والحرب ايطالية حبشيةٌ . . . فلمن تكون الدائره ؟
محصورة بالدولتين . . . وإنما بالعالمية[2] منذره
فإذا هي اندلعت ، فنارٌ للحضارة والحياة مدمره !

* * *

في ذلك الجو الرهيب ، تجمعت فئة بنادي الجامعه
يتحدثون عن المصير ، عن البلاد ، لهم قلوب هالعه ..
ومضى يقول أبو الوفا :

« إنا عرفنا الإنجليزَ ، وغدرهم
إن قامت الحربُ التي نخشى ، فقل لي كيف نأمن مكرهم ؟
في المرة الأولى بذلنا جهدنا — بذلا .. لنضمن نصرهم ..
حتى إذا انتصروا ، بنا غدروا .. وما منعوا هنالك شرهم ..
وتحرشوا بالشعب ، وانطلق الرصاصُ على الشبيبةِ وابلا
أما الزعيم فبات منفياً ، وأما شعبُهُ فمقاتلا
فازوا بما طلبوا . وضعنا نحنُ بين تظاهرٍ ، ومفاوضه ! »
وأجاب صابر :

« لا يجوز الصبر .. هل تعطَى الحقوقُ مُقايضَه ؟
هي فرصة الأجيال ، يا زملاءُ ، سانحةٌ لنا ، فلننتهزْ ..
فلنبذل الأرواح ، مرتخصين غاليها .. ومن يبذل يفزْ ! »
وتكلمَّ ابن الجابريّ .. وكان من بيت النبالة والغنى ..

---

(١) موقعة عدوة المشهورة وقعت بين ايطاليا والحبشة عام ١٨٩٥ وفيها انتصرت الحبشة وصدت الغزو الايطالي عن اراضيها .

(٢) المقصود الحرب العالمية .

قال :

« اسمعوا .. لن يَقبلَ الحزب المهانةَ أن تحلَّ بشعبنا
إن الزعيم له مواقفه المشرّفة ، العظيمة بيننا ..
ومتى أهاب بنا الزعيمُ فسوف نتبعه ، وننصر حزبنا ! »

فأجاب صابر ساخراً من قوله :

« ما للزعيم وللوطن ؟ !
فليذهبوا ، وليجلسوا ببيوتهم .. إن البلاد ستمتحن
الفرصةُ الأولى مضت ، وتبددت ، بعد القتالِ الأول
سعدٌ وعدلى فرّقا ما بيننا .. فكلاهما لم يعدل
أنصارُ عدلى حدّثوا أن الرعاعَ وراء سعدٍ قد مشوا
ورجال سعد أفظعوا في القول عما يضمرون وما اختشوا
قالوا الحمايةُ إن أتى سعدٌ بها ، فهى المنى ، وهى الطلبْ
وإذا أتى عدلى بالاستقلال نرفضه .. كذلك بلا سبب !
أرأيت ؟ هل ترضى بها يا صاحبي حزبية عمياء ؟
لا .. بل لنصرع خصمنا بسلاحنا .. أو فلنمت شهداء ! »

* * *

وتكهرب الجوُّ .. استبدّ بصابرٍ إيمانه ، بل ثورته
وتلفتَ ابن الجابرى ، وضاع منطقه ، وزاغت نظرته ..
واحمر منه الوجه ، ثم اصفر ، ثم اخضر .. مما قد سمع
وأزاح مقعده الكبير .. وثار منسحباً .. وهمّ فما رجع
ومضى .. وابراهيمُ يتبعه ، وسعدٌ ، والشريف ، ومصطفى
ومضت دقائق .. ثم سار وراءهم عيسى .. وقام أبو الوفا .

* * *

لم يبق إلا أحمدٌ .. فدنا لمقعد صابر ، فتكلما
سهرا هناك الليل ، فاصطحبا معاً ، واستعرضا أمر الحمى

نعم الزميلان اللذان تعاهدا أن ينصرا وطنيهما
ندّان ، هذا من صميم الشعب ، من طنطا . . وذلك من طما . .[1]
إذ قال أحمد :
« ما الذى قد أكره ابن الجابرىّ لينسحب ؟ »
فأجاب صابرُ :
« قد ذكرتُ له الحقيقة ، فاستبدّ به الغضب
حزبية عمياءُ تحكم مصر . . هل أدركت ؟ ذاك هو السبب ! »
فمضى يقول :
« ومن هو ابنُ الجابرىّ ؟ »
فقال صابر :
« لا تسل
هذا الغنىُّ ابن الغنىّ .. إلى الزعيم بجاه أسرته وَصل ..
أرأيته يمشى . فيمشى خلفه أتباعه ، وذيوله ؟ !
فيصفقون لجهله ، ويؤمنون عنى الذى سيقوله ؟ !
ما شأنُهُ والشعبُ ينطق باسمه . . والبغىُ سرُّ وجوده ؟
والظلم والإقطاع منشؤه . . ومنشؤ أهلِه ، وجدوده ؟
إن الخداع اليوم ملء الأرض .. ملء الناس .. ملء المجتمَعْ
فاحذره أحمد .. واحذر الأحزاب .. لا تركن لها .. لا تنخدع
هذا زمان كلُّ من فيه أنانىٌّ .. يقول ، أنا ، أنا ..
البحثُ فيه عن الغنيمة والحرام .. هو المنى ، كلُّ المنى ! »

(١) طما بلدة بالصعيد ، وطنطا بالوجه البحرى ولعل هذا مما يفسر لفظ «وطنيهما» صيغة المثنى فى البيت السابق .

(٣)

يوم القنطرة

بدأ الشبابُ مع الصباح بساحة الحرم المقدّس يلتقى
من ثائرٍ، ومحرض.. أو هاتف ومردد.. ومصفق
جعلوا سقوط الانجليز نداءهم .. بئس العدوُّ الأنكدُ
بالأمس قام وزيرهم[1] في «الجلد هول»[2]..لشعبنا يتوعدُ
كان الخطابُ هو النذيرَ .. فقال صابرُ هاتفاً:

«يا أحمدُ!

أقرأت ما قال الوزيرُ المستبدُ، وما أهان، وما شتمْ؟
قد قال: إنهم الذئاب الحاكمون.. ونحنُ في مصر الغنمْ!»
فأجاب أحمد:

«ويحه! هل قالها؟ بل نحنُ أسياد الأممْ
نحن الألى شدنا الحضارة، والعمارة، في الزمان الأقدمِ..»
فأجاب صابر غاضبا:
«ماذا تقول؟ أفى الزمانِ الأقدمِ؟
بل نحن أهل اليوم.. أبناء الحقيقة، والزمان الحاضر..
ماذا تبقى لابن مصر اليوم من صفة الكمى، الثائر؟
لا بد منها ثورة كبرى، تسيل لها الدماء.. أتفهمُ؟

(١) الوزير هو المستر صموئل هور صاحب التصريح المعروف الذى كان سببا لاندلاع ثورة مصر عام ١٩٣٥

(٢) الجلد هول Guild Hall القاعة التى ألقى فيها هور تصريحه فى مدينة لندره

اليوم نعلنها .. ونشعلها .. ونترك نارها تتضرمُ ! »
فأجاب أحمد :

« كيف ذلك ؟

قال صابر :

« إننى أتقدم .
أقبل .. ولا تخش المنيةَ .. ما الذى نسقى ؟ وماذا نطعم ؟
كأس المماتِ أم المذلةِ ؟ »

قال :

« بل كأس المذلة علقمُ ! »

واحتدَّ صابرُ :

« هل نعيشُ . . ومصر في أصفادها تتألمُ ؟ »

فأجابه :

« لا بل نموتُ فدى الحمىَ . . وتعيش مصر وتسلمُ ! »

* * *

وتجمهر الطلاب فى الساح المقدَّس يهتفون من الضحى
وتتابع الخطباء . هل حمى الوطيسُ ، ودارت اليوم الرحى ؟
ماذا جرى ؟ إن الحماسة فى الشباب سعيرها يتأجج !
من أشعل اليوم الثقاب ؟ ومن اصطلى ناراً ؟ ومن يتفرجُ
وتلفتا وتطلعا .. حتى إذا عرفا الحقيقة صفقا ..
هذى فتاةُ فى الجموع ، قد ارتقت فى الجدِّ أشرف مرتقى
ظهرت هدى ولقد عرفنا فى سماء العبقرية من هدى : ..
ظهرت لتهتف للجهاد .. وتستحثَّ الشعبَ ، صادقة الندا .
نعم الخطيبة ، وهى ترسل صوتها عبر الفضاء مجلجلا .

تدعو الأبيةَ ، والأبيَّ ، إلى الجهاد ، إلى الدماء ، إلى العلى

تدعو الشباب . . فتستثير من الشباب دماءه وعروقه .

قد كان فى ظلمات غفلته ، فأشرق ، واستبان طريقه . .

لم لا يخوض الموت إعصاراً ، ويقتحم المعارك عاصفه ؟

لم لا يكون نذير هذا اليوم للأعداء حرباً قاصفه ؟

مضت العصور ، ونحن فى هذا السبات على المدى . فالى متى ؟

إن كان نفخ الصور يوم « الجلد هول » . . فقد بعثنا الميتا !

* * *

هبطت خطيبة ذلك اليوم الرهيب .. وراح يحمدها الملا .

فتقدم ابن الجابرى إلى المنصة .. مبطئاً ، مستمهلا .

ووراءه النفر الكرام .. يهيئون ويفسحون طريقه

وبدا بموقفه ، وخاتمه يشعشع فى النهار بريقه ..

وبخصره يسراه مسندة .. ويمناه تشير بإصبع ..
ويقول :

« مهلا أيها الزملاء .. إيدن ، كاذب ، بل مدعٍ .. (١)

من ذا أقام اليوم إيدن حاكماً فى مصر ؟ من ذا وكله ؟

هل نحن أتباع له ، أم أننا أحرار ؟ تلك المسأله ! »

وتتابع التصفيق .. قال :

« ونحن نجهر بالهتاف ونعلن ..

قولوا « ليسقط إيدن ! »

---

(١) كان إيدن وزيرا لخارجية انجلترا عام ١٩٣٥ ، وقد أتبع تصريح هور يومئذ بتصريح مماثل ، مما جعل شباب مصر يهتفون بسقوطه . ويلاحظ فى آخر هذه الملحمة أن إيدن نفسه كان هو قائد حملة العدوان الثلاثى الغاشم على مصر عام ١٩٥٦ ، والتى انتهت بهزيمته المعروفة ، واعتزاله السياسة جملة . .

فتعالت الأصوات ..

«يسقطْ إيدنُ !»

ومضى الخطيبُ يتمُّ خطبته ، فقال ..

« .. ونحن متحدونا ..

وطنية الزعماء فوق الشك .. فالزعماء مؤتلفونا .. »

* * *

وتدافع الطلابُ كالبحر الخضم ، غدا يفور ويلتطم
وعلا الهتاف .. وصار كل منهمُ ليثاً يثور لينتقم ..
هتفوا لمصر ، وللفداء الحرّ .. واندفعت بباب الجامعة
فئة مرددة نشيد الثائرين .. له مقاطع رائعه ..
راحت ترددها تباعاً فى الحماسة .. والجموع تردّد
هذا نشيد الثائرين .. فكل من حفظ المقاطع ينشد !

نشيد الثائرين

جاء يوم الجهاد فى سبيل البلاد
ذاك يوم التناد فاصرخوا فى عناد
نحن أهل الجلاد قادةٌ لا نُقاد
زال عهدُ الرقاد رمزُنا الاتحاد

* * *

نحن قومٌ أباه أهل عز وجاه
قد رفعنا الجباه ووَهبنا الحياه
مذ طردنا الرعاه شعبنا فى علاه
أىّ شعبٍ سواه قد أتى ما أتاه ؟

* * *

جاء يومٌ مبين من وراء السنين
يوقظ الغافلين عزمكم لا يلين
فانهضوا ثائرين واطردوا المعتدين
وافتحوا باليقين كل حصن حصين

* * *

كان يوم الحساب فى ضمير الكتاب
كم حملنا العذاب ووردنا السراب
ثم لاح الشهاب بعد طول الغياب
فاتحاً كلَّ باب فاغضبوا يا شباب

* * *

قد شرعنا الرماح للعلى والكفاح
جاء يوم الفلاح كلُّ نصر متاح
مصرنا لن تباح أو تفور الجراح
فاصرخوا فى البطاح السلاح ، السلاح !

* * *

قد بذلنا الدماء للعلى والفداء
لاح صبحُ الرجاء حلَّ يوم الجزاء
فاطردوا الأدعياء واصرخوا للسماء
منقذ النيل جاء فالجلاء ، الجلاء !

* * *

وتقدم الزحف المقدس بعد ذاك يسير صَوّب القاهره
مشت الألوف من الشباب ، قوية ، صخابة ، متظاهره ..
حملوا السلاح إلى عدوهم الألد .. حجارة ، وحديدا
يتزاحفون كتائباً ، ويرددون هتافهم ترديدا . .

شهدت على ذاك السماء ، وطافت الأملاك يوم القنطره
ما أعظم الزحف المقدس ، فى تقدمه ، وأروع منظره
والنيل يُرهف أذنهُ .. وكأنه قد كفّ عن جريانه ..
يصغى إلى فيضان أرواح الشباب . : أشد من فيضانه ..
حتى إذا عبرَتْ عليه ، تجوز قنطرة الردى ، أفواجهُ
وقع الذى هدر الزمانُ به . . كما هدرت به أمواجهُ
وتقدّمت سيارةٌ غبراء ، من قلب الجزيرة ، مسرعه ..
وترجل الأعداء . . من حُمر الوجوه . . من الجهات الأربعه . .
ركعوا على الأقدام ؛ فى ساحَ القتال . . ودوّت الطلقاتُ . .
وتساقط الشهداء . . واختلط النداء وعمت الصرخاتُ . .
وتصارع الخصمانِ . . لكنّ المعارك لم تكن متكافئه . .
وأحست الأرض الحزينة بالدماء . . تسيل . . حسرى . . دافئه !

* * *

وأحسّ أحمد بالدماء ، تسيل من يده . . وتصبغ ثوبهُ . .
لكنه لم يلتفت إلا لصابر . . وهو ينزف ثوبهُ . .
لله نجدةُ صابرٍ . . لما رأى أن الرصاص قد انطلق ،
وأصاب من زملائه حرًّا . . لجدّله ، وللصدر اخترق . .
ورأى الشهيد « أبا الوفا » . . يلقى رصاص الإنجليز بصدره
كالليثِ لم ينكص على عقبيه ، أو يُشهد مُوَلّىَ ظهره . .
ورآه يَهوى ميتاً ، مثل الحمامة صادها صيادُها . .
ورأى الحياة . . بريئة . . عزلاء . . قد أودى بها جلادها
فهناك ثارت منه نخوته ، ووقدُ النار فى أضلاعه
ومشى إلى الجلاد ، فى عزم الأبىّ ، وهزه بذراعه
لكنه . . ما كاد يفعل ذاك ، يبغى النصر من أعدائه
حتى تلقى بين جنبيهِ رصاصتـــهُ وفى أحشائه !

(٤)

وصية الشهيد

رقد الجريح على سرير الموت . والدم سائلٌ يتدفق
ورفاقه من حوله . فمضمِّد أو هالعٌ ، أو مشفق .
وتقاطر الزعماء . والكبراء . والزملاء ، والآباء .
وفدوا على « دار الشفاء » . وكلهم للأبرياء دعاء
يتعاظمون الخطب . لو يرجى لخطب المعتدين شفاء
يستنكرون الجرم ، لم نبلغ مداه جريمة نكراء
بلغ الزحام مداه .. وانثالت جموع الشعب فى الطرقات
فى كل حين يحمل الجرحى . ويجرى الهول فى الحجرات
وتلوح أشباح الممات وتختفى . وتعاود الأشباحُ
ولوجه عزريل الرهيب لمن تأمَّل . غدوةٌ ورواح
وعلا صياح . فاقشعرت منه أجساد الجموع الهالعة ..
وتدافعوا . . وتصايحوا :

« سرقت يد الجانى شهيد الجامعه ! »

وخلا المكان .. كما خلا عند الضحى بالشط ، بعد المذبحه ..
وتصايح المتدافعون .. وركبهم يشتد نحو « المشرحه » !

* * *

سكن المكان هنيهة قصرت . . وساد الصمت كلَّ العنبر
حتى تحرك فى سرير الموت صابر . . ذو الجبين الأصفر
متلفتاً من حوله ، متسائلا عن صحبه ورفاقه
ذبلت نضارتهُ ، ولكن لا يزال الذهنُ فى إشراقه . .

فرأى بجانبه من الجرحى ، أعــزَّ رفاقه يوم الدم

يا ويحه ! من ذاك ؟ أحمد ؟ هل أصيبَ ؟ فإنه لم يعلم

هتف الجريح إلى الجريح ، وروحه فى صدره تتحشرج

ودنا الصديق من الصديق ، وناره فى قلبه تتأجج

راح أحمد ساهماً ، مستجمعاً أفكاره ، يتذكر . .

ويقول :

« هذا حلم يقظان . . وقد مرّت عليه أشهر

شيخ تقدم فى مقام السّيد البدوىّ منى واقترب

ومضى يحدثنى حديثاً ، قد تحقق كله . . يا للعجب !

إذ قال لى فيما يقول : حذار ثم حذار من كيد العدا

الانجليز . . فإنهم فى مصر شر من استبدَّ أو اعتدى . .

إنى أرى جنديهم . . وأرى مسدّسه إليك مصوّبا . . »

أسمعت صابر قوله ؟ أرأيت منــذ اليوم أمراً أعجبا ؟

ها قد لقينا الانجليز ، وقد أصبنا كلنا برصاصهم . . .

وأجاب صابر :

« بل عرفنا غدرهم بالشعب من إخلاصهم ! »

فأثار دهشة أحمد هـذا المقال ، وراح يسأل :

« من هم ؟ »

قال الشهيد الحى :

« هم أعداؤنا بالحقّ ، فاحذر منهم . .

الخائنون لعهدنا ، ولعهد مصر . . ألستَ منهم تعجب ؟

المستغلون الزعامة والدماء . . ليسرقوا ، ولينهبوا . .

قل لى بربك ، أين راح الجابرى الشهم . وابن الجابرى

ترك الرصاص وناره . . لأبى الوفا ، ولأحمد ، ولصابر . .

ومضى ليهتف خلف هفاف الستائر . . للزعيم ، وللوطن . .

ومضى ليقبض أجره أيضاً . . أيحطب فى الشباب بلا ثمن ؟
قدنا المظاهرة الرهيبــة وحـدنا . . وبناظرىّ رأيتـه
متسللا عند الخروج . . ولم يجبنى عند ما ناديته ..
ركب الزعيم[1] وحوله أتباعه ، سيارة سوداءَ ..
هم يهربون لدى اللقاء . . ونحن نسقط وحدنا شهداء ! »

* * *

وتدافعت زمر الشـباب ، وأصبحت عبرَ المسـالك تقترب
وتبين البطلان ألفـاظاً ، تمر عجيبـةً ، بين الصخب
علماً بأن الجند قد سرقوا الشهيد . . وغسلوه ، وكفنوا
حملوه مخفوراً لبلدته .. بليـل .. واحتواه المدفن ..
فجرت دموعٌ فوق خـدّى صابر ورفيقـه ، لأبى الوفا
بكيا لمصرعه .. إلى أن كفّ صابر ، ثم قال :

« كفى ، كفى ..

هـذا شهيد نال من شرف الشهادة ، وهو أغلى الأوسمه !
ليست مصارعنـا بمؤلمة .. ولكن الخيـانة مؤلمـه !
إسمـع إلىّ أخى .. فإن إصابتى منـذ العشية بالغـه ..
وأرى كلاب السوء فى دم شـعبنا الحر المجاهد والغه ..
إن مت فاحفظ عهـد إيمان يؤكده لديك إخاؤنا
عهـــدى إليـك أخى بأن الانجليز .. همُ همُ أعداؤنا !
إن عشتَ أنتَ فلا تهادنهم ، وحاربهم إلى أن يقهروا
لن يسقط الشهداء ، إلا هبّ أبطال الفداء ، ليثأروا . . »
فبكى الصديق وقال :

« كلا ، بل تعيش أخى ، لنخرجهم معا . . »

---

(١) أراد بالزعيم ابن الجابرى ، لتشبهه بزعيم الحزب ، ولأنه كان يطلق عليه يومئذ زعيم الطلبة أيضاً . .

وأجاب صابر باسماً :

« أبطالنا لا يذرفون الأدمعا ..
عش يا أخي بعدي . . وجاهد ما استطعت ، لتستقل بلادنا
واحفظ هناك وصيتي : « الإنجليزُ هُمُ هُمُ أعداؤنا ! »
أما أنا فأموت بعد هنيهة . . . وأحس قرب الموعـــد . .
أنا لا أبالي أن تمزق جثتي . . أو أن يفرق مشهدي . .
أنا للبلاد المفتدى ! »

فترددت جبارةً كلماته . .

كقصيف رعد في الفضا يعلو . . وتذهب في عُلاه حياته . .
وكذاك اسلم روحه هـــذا الشهيد الحرُّ . . بين رفاقه . .
وتقدم التاريخ . . يفتح صفحة الأبطالِ . . . منذ فراقه !

* * *

آلى الشبابُ وأقسموا ألا يضيع شهيدهم أو يُسرقا . .
باتوا بجانبه العشيةَ ، يرقبون الصبحَ حتى أشرقا . .
حفظوه ، وانتدبوا فريقا يحفظون له جلال الموكبْ
وتحرك الركبُ الحزين ، تزاحمت أفواجـــه بالمنكبِ
وتقدمته جماعة الفتياتِ . . . يحملن الزهور اليانعة !
وتدافع الأبطال دون النعش ، ذَوْداً عن شهيد الجامعه !
ولقد أحسَّ بكل ما يجرى زعيمُ الأغلبيةِ . . . فابتدر . .
ما جاء إلا أن نِدا ، أو غريماً في الزعامةِ . . قـــد حضر . .
وأحس أحمـــد أن واجبه يناديه ، فأنسىَ جرحَــهُ
كمْ ناصح آلى عليه أن يعود ، فما تقبـــل نصحه
بل سار خلف النعش ، يضرب في ظلام الليل ، أو يرق الجبل
جاء الجريحُ لكى يؤدى واجباً نحو الشهيد وقد رحَلْ
دخل الوفى على الشهيد ضريحه . . وعليه قـــد نُشر العَلَمَ

وتقبلت يده العزاء ، على الجراح ، وما أحست بالألم
ثم اعتلى سطح البناء ، وقد تراكمت الأزاهر حوله . .
يلقى خطاباً فى الشباب ، وفى ظلام الليـل ينشر قوله . .
ويقول للابطال :

« يا أبطال ! هذا فى الضريح شهيدكم
لن ينفع اليوم الهتاف ، وإن تعالى فى السما ترديدكم . . .
إنا نموت فدا المبادىء . . فليكن يومُ الفدا يومَ العمل . .
مصر العزيزة ترتجى منا الكثير . . ولم يزل فينا الأمـل . .
هيا إلى التحطيم يا ثوار . . يا ثوار . . هيا . . حطموا . .
اليوم أنتم أقوياء بمـا بذلتم للحمى . . فتقدموا . .
إن الشهيد الآن يسمعكم . . . ويخطب فيكمُ من قـبره . .
لو شاء ألقى عنه من كفن الخلود . . ومن معطر زهره
لو شاء قام الآن فى هـــذا المقـام . . لـكى يؤكـد عهده
وليطمئن بأننا سنكـون أبطالا ، كراماً ، بعده . .
« الإنجليز همُ همُ أعداؤنا » . . . هـذى وصيته لنا
لن نهمل اليوم الوصيةَ بعده . . حتى نموت ، وندفنا . .
إن كان ينقصنا السلاح ، ففى يديكم يا شـباب سلاحكم
العزم والإيمان ، فابتدروا ، لتبرأ فى القلوب جراحكم . .
إن الجراح لفى القلوب . . وجرحنا كم غار فى قلب الوطن . .
الإنجليز هم العدو ... فبيننا أبـداً وبينهم الزمن ! »

* * *

فتصايح الأبطال ، من بين الشواهد والقبور ، ودمدموا
هتفوا لمصر ، وللشهيد ، وللجهاد ، وللفــــداء ... وأقدموا
يتدافعون من الأزقة ، والدروب إلى الطريق الاكـبر ...
يتقدمون إليه من باب الوزير ... ومن طريق المحجر ...

في ثورة كالثورة الأولى غـداة الحرب تُضرِمُ نارها
حرب الكراهية الشديدة ، والمرارة ، لم تضع أوزارها . .
هذى الحجارة كالقذائف فى الطريق تتابعت متواصله
يلقى الشباب بهـا . . كما تلقى القيامة بالرجوم النازلة . .
أين السلاح ؟ لو أنه حمل السلاح عرفتَ ماذا يفعل . .
يمضى العشيةَ صوب « قصر النيل » . . يقتل فى العدا ويمثل . .
الإنجليز هناك من عهد احتلالهم البغيض الآثم . . .
الإنجليز . . ومن لكابوسٍ على صدر البرية جاثم ؟ !

* * *

وتطلع المشدوه أحمد . . وهو يرجع فى الهزيع لداره . .
ويرى بعين الغيب جيلا ، معلناً بالحق عن إصراره . .
هذا الشباب يثور . . بل هذى مصابيح الطريق محطمه . .
لن يهدأ اليوم الشباب . . وإن غدت كل المدينة مظلمه !

(٥)

ثمن الحصاد

ما كاد شهرٌ ينقضي حتى تلاقت في رحاب الجامعه
زمر الشباب ، فجددت عهد الفدا صخابةً ، متدافعه
ماجت بها الساحاتُ ، كالبحر الخضم ، إذا تلاطم في غضب
الثورة الحمراء تعلنها .. وقد رفع الستار عن النصُب[1]
وتراكمت من فوقه الباقات ، من عطر الجراح ورودها
وتتابعت فرق الكتائب ، واستطالت للسماء بنودها
أرأيت للعلم الجديد الحر ، يرمز للحديد ، وللدّم ؟[2]
يهفو بلونيه .. بأحمر مشرق زاه .. وأسود معتم .
أما الشبابُ فثائرٌ حرّ . وأما عصرُهُ فجددٌ ..
أنظر إلى الرايات في ساح الجهادِ ، كثيرة ، تتعدّد ..
يدعو إلى ثأر ، يراهُ واجباً ، لأبي الوفا ، ولصابرٍ ..
لابدّ من غزو المدينة .. بالجموع من الشباب الثائرْ !

* * *

خرج الشبابُ لثأره متحفزاً ، ولكم يَرُوعُ إذا ثارْ
متقدما في الجيزة الخضراء صوب النيل .. نيلٌ من بَشَر ..
وهناك قنطرة الردى ، وقفت له كالجنّ تنذر بالخطر

---

(١) النصب التذكاري للشهداء .

(٢) اتخذ الشباب يومئذ علما لثورتهم من اللونين الأحمر والأسود ، أحدهما يرمز للدم أو الاستشهاد والآخر للحديد أو القوة . ومن طريف الملاحظات أن هذين اللونين يوجدان اليوم في علم الجمهورية العربية المتحدة بالاضافة إلى اللون الأبيض .

ياويحه ستری المدينة منه أهوال الزمان إذا عبر ..
عرف الشبابُ وقد تجمهر فوقها أن العدّو له رصد
فمضى ليعبرها إلى قلب المدينة ، وهو يزأر كالأسد ..
فتحركت منها اللوالب ، واستدار الصلبُ ، والجذع انفصل ..
وكأنَّ باخرة تشق النيل ماخرةً .. وتعلو كالجبل ..
شهد الشبابُ خديعة الأيام دبرها العدوُ وساقها
لم يُلفِ قنطرة الردى مفتوحةً ، حتى انتوى إغلاقها
وكذاك يفعل ما يعن له الشباب العبقرى إذا اعتزم
وكذاك يدرك مايؤمله الفدائى الجرىء ، إذا انتقم
إن الشباب مجازف .. وله قوًى يوم البطولةِ خارقه ..
أنظر .. فهذا أحمد .. ينقض للماء انقضاض الصاعقة ..
عرف البطولة ، فاستعدَّ لها ، وألقى فى الخضم بنفسه
وتتابع الأبطالُ لما أعجبوا منه بشدة بأسه .
أخذوا بأصل الاسطوانة ، فاستلان لهم حديد القنطره
ومضت تدور كأنها يد الشباب . كما أراد مسخره ..
وتدافعت زمر الأسود إلى العبور ، جريئةً لاتتقى
الشاطىء الغربى تخليه .. وفى شط الجزيرة تلتقى
وهناك دارت كل ساعات النهار إلى الغروب المعركة .
وتتابعت فيها القذائف والرصاص ، فكان يوم المهلكة ..
كثرت به الشهداء ، والجرحى ، وشبت نارهُ فى المنيلِ
والجند ينتهك الطريق ، ولا يعف عن اقتحام المنزل ..
وانسل أحمد ، فى مغيب الشمسِ بين ثلاثةٍ رفقاءِ
فى زورقٍ ، عبروا عليه النيلَ صوبَ الجيزة الخضراء !

* * *

ذهبوا لدار الحزبِ ، فى ذاك المساء ، وقابلوا أصحابهم ..

لكنهم سمعوا حديثاً هـدأ عزمهم ، وأمراً رابهم
رأوا الزعيم يمر بينهم لحجرته الوثيرة .. غاضباً ..
ورأوه يصخب كلما لقى الشباب ، مجادلا ، ومخاطباً
وتقدم ابن الجابرى .. فصاح فى الثوار :

« عاش زعيمنا ! »

ورأى الأباةُ الصادقون مفاسد الأحزاب تظهـر موهناً
رأوا التملق والرياء .. وكل أمر شائن لا يحمد
شهدوا اتجاراً ، بالمبادىء ، والشهيد .. فليتهم لم يشهدوا ..
وأتى الزعيم ليخطب الثوار بعد هنيهة .. فتكلما ..

قال :

اسمعونى ، وانقلوا عنى .. كفا كم ما أريق من الدما ..
فأموركم قد أصبحت بيد الزعامة .. والزعامة ساهرة ..
أما الدسيسة فاحذروا .. إن الدسيسة فى الدُّجى متآمرة ..
القصر أولانا الرضى .. فكفاكم صخباً لئلا يغضبا ..
ولسوف يدعونا لتأليف الوزارة .. مدنياً ، ومقرِّبا
والإنجليز .. دعوهم .. وتجنبوا أن تهتفوا بسقوطهم ..
فخصومنا الشرفاء قد قبلوا التقدم من غدٍ بشروطهم ..
سنفاوض الشرفاء منذ غدٍ .. ونعقد للبلاد معاهدة ..
فخذوا بحكم الصبر .. إن الحرب صبرٌ دائم ومجاهده ! »
ومضى الزعيم يمر بينهم لحجرته الوثيرةِ .. راضياً ..
وتقـدم ابن الجابرى .. وراح يهتف للزعامةِ .. ثانياً !

* * *

وتسكع الزملاءُ ، أخرى الليل ، بين النور والظلماء
قالوا لأحمد ، وهو ينكر :

« هل لنا فى ليلة حمراء ؟

وزعيمنا ابنُ الجابرى بهـا .. كما كان الزعيم من الضحى
كنا نؤم الساحة الـكبرى ضحى . . لم لا نؤم المسرحا ؟
دع عنك أحمدُ الانطواء ، فللشباب جماله ومباهجـــه
واصنع كما صنع الشباب ، فللشباب إلى الجمـــال معارجه
سترى الحسان ، وتسمع الألحان .. موسيقى تفيض ، وراقصه
إن أنت لم تنظر ، وتستمتع بها ، كانت حياتك ناقصه ! »

* * *

وأصيبَ أحمدُ بالذهولِ ، لمـا يقول رفاقهُ ، ولداتهُ
ومضى وإياهم إلى دَرب يضيق ، وقـــد علت درجاته ..
ورأى زحاما مثل يوم الحشر ، يعلو فى الطريق ويهبط
هى أمـة عشواء ، أخرى الليل ، فى طرق المفاسد تخبط
من كل أحمقَ ماجن ، أو عامل مستهتر ، أو عاطــــل ..
يستعرضون المومسات عشية .. من صاعـــد أو نازل ..
أما الطريق فـــاؤها قـــذرٌ .. وأما نورها فضئيل
منصوبة فيهـــا مواخيرُ البغـــاء .. ببابها القنـــديلُ
لـكن احمد فى وجوه المومسات ، رأى ضحايا المجتمع ..
فأبى المسير ، وما استبد به نـــداء ضميره حتى رجع !

* * *

رجع الرفاق جميعهم مع أحمد ، طوع البنان ، كما اقترح
هبطوا « عماد الدين » .. ليلا ، يهتفون ويصخبون من المرح
تركوا الخيالة جانبا .. ماللشباب الواقعى وللرؤى ؟
وأتوا إلى الملهىَ .. أضيء النور فى أبوابه .. فتلا لأْ ..
وتأخر ابن الجابرى .. فـــلم يعقهم عن نزول المعترك
وقفوا وراحوا يهتفون من الحناجر .. للزعيم .. وللملك ..
ولغادة الملهى « رجاء » ، فأقبلت فى نصف ثوب ترفل ..

عرفتهم ، فتبسمت لهم رجاءُ .. وصرحت أن يدخلوا ..
حزب الزعيم .. وكم أقامت حفلة يلهو بها نوابه ..
أرضت شيوخ الحزب ، فى حب الزعيم .. فهل يرد شبابه؟
ومضى الشبابُ ، وقد تناثرت المقاعد دونهم فتخيروا
وجرى الشراب عليهمُ .. أفلم يجيئوا ظامئين ليسكروا؟
وتلفت المشدوه أحمــد ، والستار يزاح فوق المسرح
هبلته راقصةٌ ، من الخود الحسان ، جريئة لا تستحى ..
لاثوب يحمى جسمها ، إلا غــلائل شفة لاتستر
أثداؤها ، أردافها ، أكتافها ، أطرافها .. تتأطرُ ..
ظلت تميل وتنثنى ، فتلوح منها روعـــة ومفاتنُ
فمضى يسائل :

« من تكون ؟ »

أجابه الأصحاب :

« تلك محاسنُ ! »

وتتابع اللحنُ القوى وتابعته ، وأسرعت فى رقصها
ومضى يراقب وثبها عجلا .. وتعجز عينه عن فحصها ..
حتى إذا نزل الستار ، وصفقت كل الأكف ، وصفقت ..
ظهرت محاسن بين منثور المقاعد ، كالشهاب تألقت ..
جلست إلى هـذا وذاك ، وفرقت ضحكاتها ودعابها
ومشت إلى ابن الجابرى .. عليه تعرض حسنها وشبابها ..
غمزت له بالعين ، واتخذت برفق مقعـــداً بجواره ..
ومضت تحدثه ، لتخرجه قليلا من شديد وقاره ..
حتى إذا انبسطت أساريرُ الزعيم .. أراد يضرب موعدا
قالت :

« متى ألقاك ؟ »

قال :

« كما تشاء محاسن ! »

قالت :

« غداً ... »

وهنا تذكر أحمد قولَ الشهيد .. غداة أدرج فى الكفن ..
ما كان أصدق قوله حقاً ..

« أيخطب فى الشباب بلا ثمن ؟! »

* * *

وبدت خيوط الفجر زاهية .. وأدبرت الكواكب غائره ..
ومضى الشباب إلى الطريق ، وقد تنسمها .. نسائم عاطره !

(٦)

عبث الشباب

جلست هدى الحسناء ، فى صدر المدرّج ، فى الصباح مبكرة
أوراقها مثورة ، كالفيلسوفة .. فى الأمور مفكرة ..
حيناً تفتش فى الحقيبة .. خلسةً ترنو إلى مرآتها
وتعود للأوراق أحياناً ، تجيل العين فى صفحاتها
شغلت بتحصيل العلوم ، وبالنبوغ تعلقت آمالها
نعم الفتاة جمالها فى العلم ، مهما يختلبكَ جمالها
فى صدرها نَهم يؤرقها ، ووقد النار فى تفكيرها
ولها ذكاءٌ ، وانشغالٌ بالأمور ، صغيرها وكبيرها
كم تابعت قول المحاضر ، تستشفُّ ، وتستبينُ ، وتسألُ
إن ناظرت غلبَتْ ، وإن كتبت فصول مقالةٍ تترسّل
أنظر ، فها هى ذى أتت بكتابها ، منذ الصباح الباكر
جلست بمفردها .. فيا للعبقرية ، والجمال الوافر !

* * *

وبدا على أقصى الممرّ ، وقد رآها فى المدرج ، أحمدُ
دلف الزميل إلى المدرج ، وهو يخطو حاذراً ، يتردد ..
هى فرصةٌ سنحت ليلتقيا معاً .. لكنه يتهيبْ ..
فلكم أحسّ إزاءها ذاك الشعور .. فقلبُهُ يتقلبُ ..
قامت إليه هدى ، فصافحها .. فأبقت كفهُ فى كفها ..
هى لحظةٌ كالعمر . إن حسبتْ مضت كدقيقة أو نصفها
لكنْ .. إذا وزنت بميزان العواطف ، والشعور المضطرم

كانت حياةً ، فذَّةَ السنوات .. زاخرة بموفور النعم !

* * *

وتجاورا يوماً ، وقد جلسا سوياً فى رحاب المكتبه
رضيت عيونهما عن اللقيا ، ولكن القلوب معذبه ..
ومراجع التاريخ قد نشرت أمامهما . وكتب الفلسفه
وصحيفة الأخبار بينهما ، وقد نشرت حوادث مؤسفه
قالت هدى :

« قل لى بربك يا زميلى .. ما الذى يبغى الرجل؟
أيظن زوجته متاع البيتِ ، فى حلٍّ لديه ومرتحل؟
أيبيعها أو يشتريها ، كيفما شاءت رغائب نفسه ؟
أم أنها الجنس اللطيف؟ ألا يرق جنسها عن جنسه ؟! »
فأجاب أحمد ضاحكاً :

« لكن بربك خبرينى ، ما السببُ ..
فى كل هذى الثورة الكبرى ، وما سر الخصومة والغضب ؟
من بعد إنجاب ، وعيش وارف .. زوج يطلق زوجهُ !
أمرٌ يسير ! »

فاستشاطت ، والجدال هناك يبلغُ أوجهُ :
« إن الزواج مقدس .. وهو الوجود الآدمى بنفسهِ ..
أرأيت آدم عندما خرجت به حواءُ من فردوسهِ ..
هل طلقت حواء؟! »

قال زميلها :

« لله درك يا هدى
هذا هو الفكر البعيد ، أتيت بالفكر البعيد مسددا ..
ولكم عهدنا عندك الرأى الموفق ، والقضايا الواثقة
ودفاعك الجبار عن حواء .. لكنْ .. خبرينى صادقة

ارأيت ادم ، عندما خرجت به حواء من فرَدوسه
لو كان طلقها .. أكان يستطيع أن يعيش بنفسه ..
من غير مازَوَّج ؟ فقد كانت فريدة جنسها فى العالم !
فاليوم لا يرضى ابن آدم أن يقيده تصرف آدم !
فظروفه والله غير ظروفه ! »

قالت هدى مستضحكة :

« من ذا يجارى أحمداً فى رأيه ؟ ها قد كسبت المعركة ! »

* * *

وتحدثنا عن مصر ، عن بَذل الشباب ، وموقف الزعماء
وعن المعاهدة الجديدة .. واختلاف الناس فى الآراء ..
قالت هدى لزميلها :

« مارأى أحمد فى معاهدة الشرف ؟
هتف الكثير لها .. ولكن لا أراك اليوم فيمن قد هتف .
قل لى بربك صادقاً ، ماذا ترى ؟ »

فأجاب أحمد قائلا :

« إنى أرى شراً يدبر فى الخفاء لنا .. وخطباً هائلا ..
كنا نحارب الاحتلال .. بلى .. لقد كنا به لا نعترف ..
فغدت له شرعية فى مصر .. تضمنها معاهدة الشرف !
ولسوف تأتى بعثة التدريب .. يالك بعثة من لندره !
ليكون هذا الجيش آلات بأيدى الإنجليز مسخره ..
لا أحسب الشبان فى الجيش الجديد سيخضعون لأمرهم
ما البعثة العرجاء إلا الذل فيهم ، والخضوع لغيرهم
مـــا حلفنا الأبدى إلا نكسة لجهادنا ونضالنا
لا تذكرى أبطالنا .. لا تسأليني اليوم عن أبطالنا
لا يا هدى .. لا تخدعى .. أبطالنا بالحق هم شهداؤنا

لم أنس قولا قيل لى . . « الإنجليز هم هم أعداؤنا » . .
قول الشهيد على سرير الموت ! »

قالت فى أسى :

« يا للأسف ! »

وأجابها :

« لو كان حياً صابرٌ . . لم يرض عن هذا الشرف ! »

قالت :

« وماذا تنتوون ؟ أتصبرون على المصابِ الأفدح ؟ »

فأجاب أحمد :

« بل سنمضى فى الجهاد على الطريق الأوضح ! »

قالت له :

« كيف السبيل إذاً .. وهذا الشعب غير مسلح ؟!
إن شئت أحمد أن تكون مجاهدا حقاً ، وتخدم أمتك
فانظر لتصميم الشعوب وما أثار . . وللسلاح وما فتك
أنظر إلى غندى وديفالير . . وانظر للشعوب الثائره
أنظر إلى العربى فى القدس الشقيقة .. والدماء المائره
لم لا يكون جهادنا فى مصر مثل جهاد أندادٍ لنا ؟
لم لا تكون بمصر جان دارك الجديدة ؟ »

قال :

« من ؟ »

قالت :

« أنا .. »

ضحك الزميل لقولها ، لكنها عبست وقالت فى غضب :
« لا يا زميلى .. الفتاة رسالة غير الثقافة والأدب

أنا أو زميلاتى ، علينا واجب لبلادنا ، لا ينكر
قد أقدم الفتيان يوم الهول .. هل أبصرتنا نتأخر ؟ »
وأجاب :

« كلا »

فانبرَتْ :

« لم لا نكون مع الصفوف الضاربه ؟
إن الفتى لمحارب يحمى الحمى ، وكذا الفتاة محاربة ..
أنظر لألمانيا الجديدة .. قادها بعد الهزيمة هتلر
تجد الفتاة مع الجنود ، سلاحها ، ورداؤها ، والمئزر
ومبيتها فى سجفريد ، مع الظلام . على شفير الخندق[1]
إنى أحب الحرب ! »

قال زميلها :

« ولغيرها لم تخلق ! »

* * *

ومضى الحديث ، وطال بينهما مليّاً .. والحديث شجون
وتكلما فيما يعنُّ .. ثقافةٌ ، وسياسةٌ ، وفنون ..
لم يشعرا أن الرفاق تسللوا ، وخلت رحابُ المكتبه ..
لم يشعرا أن المساء دنا ، فأنفاس الحديث محببه ..
قالت هدى :

« أمى ! لقد غادرت أمى وحدها فى المنزل
لابد أن أمضى إليها الآن ! »

---

(١) لم تكن الحرب العالمية الثانية قد قامت فى ذلك الوقت الذى يقدر بأواخر عام ١٩٣٦ ، وأوائل عام ١٩٣٧ . فالإشارة إلى خط سجفريد إنما هى إشارة إلى تدريب الجيش الألمانى وإعداده للحرب المقبلة .

قال زميلها :

« لا تُشغلي ! »

قالت :

« لقد هبط المساءُ . . وبردُهُ غطى على الأكوان

ولسوف أمشي في الظلام وحيدة . . بحديقة الأورمان »

قال الزميل الشهم :

«لا تخشي هدى .. فلديك أوفى صاحب

ولسوف أبلغك الأمان إذا سمحت فذاك بعض الواجب

* * *

ومضى يحدثها ملياً ، وهي تسمعه . . وتسبحُ شارده

والروض تكشفه مصابيح الطريق .. ضئيلة . . متباعده ..

وأحسّ أحمد أن سحراً بات يجذبه إليها . . فانجذب

ورأى هدى في الليل ، وهي قريبة . . فدنا إليها واقترب

مال الزميل . . فلم تمانع ، أو تقاومه . . فقبل خدّها . .

هي قبلة بين الزميلة والزميل . . فكيف تملك ردّها ؟ !

(٧)

القسم المنهارة

الشيخُ نور الدين ، شيخ الجعفرية . . جاء مصر يزورها
بهرته روعتها ، وزحمتها ضحىً . . ومن العشية نورها . .
أحياؤها الوطنية الغراء ، لاح لعينه مستورها . .
من حيٍّ باب البحر . . يبهره الغداة صغيرها وكبيرها
يمضى إلى حيّ الحسين . . وفى الحسين مقامهُ والأزهرُ
هو ذاك نور الدين يدخل مسجد السبط الشهيدِ يكبر
يدعو لأحمد بالفلاح . . وقد أتمّ علومه فى الجامعه
ولتصبح الأيام آذاناً لشهرته البعيدة واسعه
وأبوه ، حين يقوم فى باب الحسين . . محركا حلقاتهِ
ستجاب دعوته ، ويُفتح لابنه الموعود ، . بابُ حياته !

* * *

يوم التخرُّج . . بات أحمد فيه ، مذ وافاه ، يحمدُ ربه
وأبى عليه شعوره الفياض إلا أن يكرّم صحبه
فدعاهمُ قبل المساء . . إلى « جروبى » واستقام المجلسُ
وأتى الرفاق .. فجاء محمودٌ ، وأعقب ذو الفقار ، ومؤنسُ
وتصدَّرت بشرى المكان .. ومثلها حضرت سناء ، ونرجسُ
والنادلُ النوبىُّ ، فى الثوب المنشى ، والحزامِ الأحمر ..
يمضى ويرجع بالفطائر ، أو صحاف الزبد ، أو بالسكرِ . .
ومضى الحديث ، فقال مؤنس :

« ما انتويتَ » ؟

فقال :

« لن أتوظفا »

سأعيش حرًا ، للصحافة والكتابةِ ناشراً ، ومؤلفاً . .
فبلادنا فى حاجةٍ لجهادنا . . وجهادنا أقلامنا . .
وسنتنضى أقلامناً ، حتى يجردَ للقتال حسامنا ! » .

* * *

وتقدمت بشرى لأحمد بالحديثِ ، فقال أحمد :
« ما الخبر ؟ »

قالت له َخجلى :

«هدى .. ُشغلتْ عن الحفل البهيَ .. وتعتذر !».

قال الرفاق :

« وما الذى شغلت به ؟ »

قالت لهم :

« ضيفٌ حضر ! » .

قالوا لها :

« فى بيتها رجلٌ ؟ ! »

فقالت وهى تضحك :

« لا عجب ؟

فلعلّ ضيف هدى قريبٌ جاء يسأل .. أو عريسٌ قد خطب ! »
وتهامس الفتياتُ ، قالت عند ذلك سناء :

« قد خطبت هدى ! »

فتساءلت بشرى ونرجس

« هل لديك بذاك علمٌ يُرتجى ؟ »

قالت :

« أجل ، خطبت هدى لموفق الدين الشريف على كِبر
شيخ من الوجهاء ، فى الخمسين . . إلا أنه يحكى القمر . .
وله الضياع العامرات ، كما سمعنا ، بالألوفِ تقدَّرُ . .
ويقال إن الباشوية فى الطريق إليه لا تتأخر ! »

واستفهمتها نرجس ، قالت :

« أشيخٌ بالعمامة يظهر ؟ »

قالت :

« وماضررُ العمامة ، وهو ذو الأرض الغنية والعزَب ؟
وله الكرتة والحصانُ . . كما يشاء . . إذا مشى . وإذا ركب ! »

ضحكت سناء ، وقهقهت بشرى ونرجس من قلوب صافيه
غابت هدى ، فليسأل الصحب الكرام لها الهدى والعافيه !

* * *

واستأذن الفتياتُ . . كلُّ زميلةٍ راحت تُحيِّ شاكره . .
وتحدَّث الفتيان وحدهمُ طويلا فى الأمور الحاضره . .
قال الملازم ذو الفقار . . وكان فى « كاية الجيش » انتظم . .
نعم الملازم ذو الفقار . . فإنه فى كلّ خطبٍ يقتحم
ترك « الحقوق » لغيره . ومضى ليثأر للحقوق وينتقم[1]
لحقوق مصرَ على المدى فى أن تسود وتستقلّ وتنتصر
فى عصبةٍ . . كتبوا وإياه صحيفة الانطلاق المنتظر . .

---

(١) الاشارة إلى أن عصبة من الرفاق تركوا كلية « الحقوق » فى ذلك الحين ، والتحقوا بالجيش ليعملوا على تحرير مصر من داخله . والمعروف أن الرئيس جمال عبد الناصر عمل ذلك أيضا .

إذ قال :

« هذى فرصةُ الأجيال ، ترفع قدرنا بين البشر ! »

قالوا :

« وما هى فرصة الأجيال ؟ »

قال :

« عدو مصر سيندحر !

هذى جيوش الهتلرية قد محت باريز فى لمح البصر ...[1]

وغدت تراوح أو تغادى فوق لندن .. بالقنابل كالمطر

فى كل يوم ألف طائرة ، أغارت فوق لندن وحدها

ورهيبة الأحداث فى دنكرك ، إذ وثبت لتغرق جندها

أنا لا أرى للانجليز سوى الهزيمة فى القتال الناشب

ولذاك أدعوكم إلى تحرير مصر من الدخيل الغاصب !! »

قالوا :

« وكيف لنا ، وأجناد الخليفة كالقذائف تنطلق ؟

هم بالسلاح مدججون .. وهم سكارى فى الشوارع والطرق

والحكم عرفى ! »

فتمتم ذو الفقار :

« بل اصبروا وترقبوا

كل الأمور معدةٌ .. والجيش فى ثكناته متأهبٌ ! »

قالوا له :

« لو زدتنا ! »

فأجابهم :

« فى مصر جيشٌ يعملُ

واشارة التحرير يطلقها الجنود متى تقدم «رومل» ! .. »

(١) دخلت جيوش هتلر باريس فى ربيع عام ١٩٤٠ ، ثم أغارت على لندن غارات متواصلة كانت تشترك فى كل واحدة منها ألف طائرة .

قالوا :

« أمحتل بمحتل ؟ »

فقال ووجهه يتهللُ :

« أو ما سمعتم أن طياراً إلى مطروح بالأمس انطلق[1]
هذا سعودى الجرىءُ، مضى يجاهد .. والجهاد من صدق .. »

قالوا :

« مجازفة ! »

فقال :

« غدا سنسمع صوته يتكلم ! »

قالوا له :

« من أين ؟ »

قال :

« هناك من « برلين » .. يدفع عنكم ! »

* * *

وتنبه الأصحابُ ، حين مضى من الليل الهزيعُ الأول
فى ليلة عصف الشتاء بها[2] .. وجاءهم زميل معجلُ
قال الزميل :

« أما علمتم بالمصيبة ؟ إنه الحدث الجلل
جيش الخليفة قد أحاط بعابدين .. وجمعه فيها اكتمل ..
وتقدمت للقصر دباباته .. فالباب منه محطم
قطع السفير ، وقادة الجيش المظفر ساحهُ فتقدموا ..
دخلوا وقد طلبوا إلى الملك التنازل صاغراً عن عرشه ..
وإذا أبى أن يستجيب لهم تعرض للسلاح وبطشه ..

---

(١) الاشارة إلى المحاولة الباسلة الأولى التى قام بها الطيار الشهيد سعودى ، للاتصال بخطوط الألمان فى العلمين . والذى ذهب بطائرته فعلا إلا أنه لم يعد بعد ذلك .

(٢) الاشارة إلى إحاطة الدبابات بعابدين ليلة ٤ فبراير عام ١٩٤٢ .

فرضوا عليه وزارة ستجيب كل مطالب المستعمر
أرأيتم ذلا كهذا الذل ، فى هـــذا الزمان الأغبر ؟ »
وجم الرفاق لما يقول .. وصاح فيهم ذو الفقار :
« سننتقم !

اليوم يضرب جيشنا الجبار ضربته .. وفاء بالقسم
اليوم يحمى الجيش حوزته ، ويحمى الدار ، بل يحمى الحرم
هى فرصة الأجيال ، ياأصحاب ، ترفع قدرنا بين الأمم ! »

* * *

لكن أحمد وحده ، بعد انتصاف الليل ، عاد لداره
متفكراً فى حاله ، مسترسلا ماشاء فى أفكاره
لِمَ لم تجئ عند المساء هدى لذاك الحفل مثل رفاقه !
هل كان يبنى فى الهواء قصور أحلام ، وفوق طباقه ؟
قد كان يرجو أن يفاجئها بما ينويه بعـــد نجاحه
قد كان يرجو أن يحدثها طويلا عن جديد كفاحه
ماذا يقول .. وهذه هى سنة الدهر التى لا ترحم ؟
مهما تعلمنـا .. فسوف نظل طول حياتنا .. نتعلم !

* * *

ومشى وحيداً فى الظلام .. وللكواكب همسها وسرارها
حتى إذا أوفى على الدار البعيدة راعه أنوارها ..
ورأى بها صخبا .. فمن هم ضيفها ، ليلا ، ومن سمارها ؟
هذا أبوه الشيخ نور الدين .. فى شرف الأريكة جالساً[1]
هذا أبوه وأمه .. قد أولياه مسامرا ومؤانسا ..

(١) شرف الاريكة : يعنى صدرها .

لكنه حياهما حتَّى على عجــل وقطب عابسا ..

هل جاء هذا الشيخ إلا كى يدل على فتاه بعلمه . ؟

ماذا يريد به ؟ سيعرف ذلك من تقريعه أو شتمه !

لكن نور الدين قال له :

« نجحت وفزت فوزاً بينا

لم لا تتم بالزواج ؟ وما الزواج ؟ أراه أمراً هينا

هذه سعادة بنت عمك .. لاتزال هناك ترقب فى البلد ..

وإذا تقدمنا إليها بالشهادة .. لم يعارضنا أحد ! »

وأثير أحمد ، ضاق ذرعا بالحديث .. فقال :

« كلا يا أبى ..

أنا لا أفكر فى الزواج الآن قبل وظيفة ، أو منصب

سأتم تعليمى ، وأخـــ ـدم بالصحافة أمتى ، وأحرر

تحرير مصر هو المنى .. فالأمر من هذا وذلك أخطر

حتى إذا مصر استقلت .. عند ذلك فى الزواج أفكر ! »

قالت له الأم الرءوم :

« عن الزواج اليوم أحمد تحجم ؟

لم يامنى عينى ؟ »

وقال أبوه :

أنت مثقف متعلم !

لم يا بنى ؟ وحظنا فى أن نراك أبا .. »

فحدق فيهما :

قال الفتى لهما :

« ألم يبلغكما ما حل ظلما بالحمى ؟

الجيش جيش الانجليز .. يؤلف الآن الحكومة فى البلد ..

وزراؤنا مثل الدمى فى كفه .. فالأمر أجمع قد فسد ! »

وهناك صاحت أمه ، لما رأت منه التعصب و اللدد[1]
قالت له :

« هل أنت وحدك مخرج للانجليز من البلد ؟!
القطر فيه الباشوات كثيرة .. وبه المشايخ والعمد ! »
فأجاب :

« لا تتعجلي .. لا أنثني يا أم عما أعتقد ! »
وارتاح نور الدين ما بين الأريكة والوسائد .. واستند
ومضى يحدثه حديث مغاضب ما كاد يعجبه أحد ..

قال :

« استمع لي ياغبي .. وسوف تفهمني غداً ، أو بعد غد..
لن تستقل بلادكم .. فالانجليز اليوم أسياد الأمم ..
ما هذه الحرب التي أبصرتها إلا الخديعة .. يا غشم ..
لاشيء يدعى هتلر .. لاشيء يدعى رومل .. لاشيء ثم ..
لكن جيش الانجليز يروح أو يغدو بمصر ، ويحتكم
فمن السويس لشط مطروح ، ومن مصر الجديدة للهرم .
لم يبغ إلا أن يؤكد حكمه فيكم .. وأفلح من سلم ! »

* * *

ومشى لحجرته قبيل الفجر أحمد .. وهو مشبوب الألم
ما هذه الدنيا الكريهة ، والبلايا .. كالخضم المتلطم
هذي الحياة وما حوت أضحت تلوح كريهة من حوله
هذا أبوه مسفها آراءه ، مستغرقاً في جهله
هذي البلاد تخب في الأحداث كالعشواء تضرب في الحلك
هذا السفير الأجنبي وجنده .. فرضوا الزعيم على الملك

---

(1) اللدد : الخصومة الشديدة .

« الانجليز هم هم أعداؤنا » .. إن الفؤاد لذاكر
هذا الذى قد قاله فى ذلك العهد المبكر .. صابر !
ومضى لحجرة نومه ، والذهن مشتعل الجوانب يحترق
همدان ، يغلبه النعاس ، ويستبد به فيصرفه الأرق ..
ماذا تبقى فى الحياة .. وقد تهاوت عنده كل القيم ؟
لكن يمنى نفسه .. ويقول

« يا عجباً متى يهوى الصنم ! »

(٨)

حديث الفتى المرموق

نار على جبل الشريف .. توقدت ليلا .. بظاهر منقباد ..
هل تلك نار الدفء فى ليل الشتا .. أم أنها نارُ الجهاد ؟
جمعت حواليها شباباً .. يفتدون بلادهم بدمائهم ..
كم ضاق ذرعهم بجيش الانجليز .. وكم سعوا لجلائهم ..
يجدون فرصتهم وراء الليل ، فى ذاك المكان المنعزل
يتحدثون ، ويسمرون .. بما يميد له من الذعر .. الجبل !

* * *

قال الفتى المرموقُ :

« إن الانجليز همُ همُ أعداؤنا ..
أصل البلية هم ، فكيف خلاصنا منهم ، وكيف نجاؤنا ؟
بالأمس قد وثبوا علينا ، واضعينَ السيفَ فى أجدادنا
ومضى عليهم نصفُ قرنٍ ، بل يزيد .. وجيشهم ببلادنا[1]
صادوا الحمام بدنشواى ، فأزهقوا برصاصهم أرواحنا ..
يا ويلهم يوم الحمامِ .. فإنهم صادوا هناك كفاحنا !
فرضوا حمايتهم علينا ، عند بدء الحرب ، وانفردوا بنا
ساقوا إلى الميدان زهرة جيلنا ، سلبوا حياة شبابنا
حتى إذا انتصروا ، وقد وضعت هناك الحرب من أوزارها

(١) المفروض أن هذا الحديث جرى فى منقباد شتاء عام ١٩٣٨ ، فيكون قد مضى على الاحتلال يومئذ قرابة ستة وخمسين عاماً .

غدروا بنا .. وتنكروا لعهودهم .. واللؤم فى إنكارها ..
لكننا ثرنا عليهم ثورة الأبطال ، والشعب اتحـــــــــد ..
فمشوا إلينا بالخداع .. وما خداعهم سوى « فرق تسد ! »
عمدوا إلى الصف الوثيق ، ففرقوه بلؤمهم أيدى ســـــــبأ
لم يدخلوا ما بينه ، حتى تفرق جمعــــــــــه ، وتحزبا
البرلمانُ خديعةٌ كبرى .. عليها للعيون ستائر ..
والانتخاب بلية عظمى .. تباع لها الغداة ضمائر ..
والشعب يهتف للزعيم إذا غدا أو راح فى طرقاته
وجنود دولة الاحتلال .. بدوا بقصر النيل .. فى شرفاته !
أما الوزارة ، والوزير .. فإن أمرهما بمصر هو العجب ..
السترة السوداء ، والقفاز ، والسيف الموشى ، والقصب !
المظهر البراق فيه كل ما يعنى الوزير إذا وزر ..
لكن أمام الانجليز .. فإنه يخطو وينطق فى حذر ..
والسيد السند الذى فى القصر يرطن بالكلام الشركسى
ويعب من كاس المذلة ، والهوان .. مع الخمور .. ويحتسى
هذا الدخيل على البلاد ، وعرشها ، وكيانها ، وشعورها
يحميه سيف الانجليز .. فكيف يفصل فى مهم أمورها ؟ ! »
قال الرفاق له :
« لقد أحسنت فى شرح البلية كلهـــــــا
وعقدت عقدة شعبنا محبوكة .. فانظر لنا فى حلها ! »
قال الفتى المرموق :
« كلا يا رفاق .. فليس ذاك هو الخطر
هذا يسيرٌ .. غير أن هناك ما يدعو لإمعان النظر ! »
قالوا له :
« أهناك أخطر فى البليــــــــة من كلام قلته ؟

أعـداؤنا أظهرت خافيهم .. وتاريخ الحمى فصــــلته .. »
قال الفتى المرموق :
« يبقى الشعب ! يبقى نحن ! أبنـاء البلد !
جيل نعد له لينشأ صالحاً ، إن كان جيل قد فسد
إنى أرى الأعداء أوهى من خيوط العنكبوت وأهونا
لـكن أسائل بعد نفسى إن يكن بعث « الإرادة » ممكننا ؟ !
شعب بغير إرادة ! ماذا يكون ؟ وكيف يصمد للعدا ؟
هم جردوه من الإرادة .. خطة مرسومة وتعمدا ..
لما سرى سم الدخيل بجسم أمتنـا سرى فيهـا الوهن
الجيش قد بدءوا به .. ليحطموا فيـه مقـاومة الوطن
بل يسروا منه الفرار .. وزينوا لضعافنا دفع البدل [1]
وإذا بحثتم عن نظـام مثل هــذا ما وجدتم فى الدول
أما المجنـــد ، فهو فى بيت الفريق أو اللواء الخـادم
يقضى شئون البيت ، أو يطهو الطعام ، وللصغير يلازم ..
وإذا مشى الجندى فى الطابور يسترخى .. فكيف يقاوم ؟
بل إن قائد جيشنا « السردار » .. وهو الأجنبي الغاشم !
لم يبق للأوطـان جيش همــه شرف الدفاع عن الحمى
عظمت بلية جيشنا .. وإذا رأينا الشعب .. كانت أعظما !
شعب بلا هدف .. تباين حظه ، وتباعدت طبقاته . .
فى الريف إقطاع قد استشرى ، وفلاح تهون حيـاته
من ذلك الفلاح ؟ ذاك أبى ، أبوك ، نعم أبوك ، نعم أبى !
من صاحب الإقطاع ؟ ذاك صنيعة للقصر ، أو الأجنبى !
والخوف كل الخوف من أن ينهض الفلاح أو يتـكلما

---

(١) ابتـكر حكم الاحتلال هذا النظام ، وهو دفع البدل العسكرى . للاعفاء من الجندية . ليصرف الشعب عن القيام بواجبه المقدس

وضعوا له « المورفين » .. سما فى الطعام ، لكى ينام ويحلما !
هذا هو الوضع الكبير .. لحكمنا ، ولشعبنا ، ولجيشنا ..
لا بد من تغيير هذا الوضع .. إن رمنا كرامة عيشنا ! »

قالوا له :

« هـذا هو الوضع الذى فيـه الحمى يتعـثر
لكن ، بربك ، كيف نصنع كى نغيره ؟ وهل يتغير ؟ »

قال الفتى المرموق :

« لم لا ؟ ذاك أهون ما يكون وأيسر ! »

قالوا :

« وكيف ؟ »

فقال :

« تلك هى اللغـات بلفظها نتـكلم ..
إن أنت خاطبت أمرؤا يوما بغير لسانه .. هل يفهم ؟ »

قال الرفاق له :

« وأنى يفهم الإنسان غير لسـانه ؟ »

قال الفتى المرموق :

« هـذا ما سأشرح .. فاسمعوا لبيانه . .
لغة العـدو مع العدو .. هى السلاح .. ولا تفاهم غيرهـا
ما زالت الأوطان فى قيـد المهانة حين تفسـح صـدرها
وتقابل العـدوان بالصفح الجميل .. وحين تعلن صـبرها !
هذا « عرابى » .. قال عنه القائلون ، واكثروا حين انهزم ..
هذا هو البطل الذى لقى العدو بسيفه .. لا بالقلم !
حتى إذا احتـل البـلاد الأجنبى . مضى يمزق جيشـها
ويحطم المسـلول من أسيافها .. حتى ينـكد عيشـها ..

أرأيتمْ فى غير مصر على الفتى حمل السلاح محـــرما
هذا الذى تلقـاه أمتنـا .. وآن لجاهل أن يعلمـا .. »
قالوا له :

« وضح لنا دور الشباب ! »

أجابهم .

« سأوضح ..
إن شئتمُ أن تهزموا أعداءكم .. لابد أن تتسلحوا .. »
وجموا وقالوا :

« كيف ذلك ؟ من سيعطينا السلاحَ و يمنحُ
وهناك محتل ، وإقطاعٌ ، وعرش مفسد لا يُصلح ؟ ! »
قال الفتى المرموق :

« هذى خطة التحرير أرسمها لكم
ضموا صفوفكم عليها صادقين ، ونظموا أعمالكم
وسنقسم القسم الشريف الآن .. فاقتربوا إلى .. تقدموا
هذا كتاب الله شاهدكم .. ضعوا أيمانكم .. وسنقسم ! »

* * *

وتجمع الزملاءُ حول النار .. والأيمان فوق المصحف
والدهر يصغى من وراء الليل ، للقسم الأعز الأشرف
نطق الفتى المرموق .. بالقسم الشريف .. وردّدت أصحابه
لو كان يسمعه الدخيل المستبد .. إذا لطار صوابه !

القسم

أقسم بالله الأجل الأكبر
وبالنبي الصادق المبشرِ
وبالكتاب الأكرم المطهر

أن أبذل الروح بلا تأخـــر
لمصر ، ذات المجد والتحرُّر
للنيل . يجرى سائغا كالكوثر
للحقل ، يزكو بالنبات الأخضر
للشعب ، فى جهاده المـــؤزر
لصد كل أجنبى مجـــترى
وطرد جيش الاحتلال الأقذر
وسحق كل قائدٍ وعســـكرى
وأن أضم كلَّ حـــر أقـدر
وكل ليثٍ كاسر غضنفـــر
لصفنا ، وجيشنا المظفـــر
بعـــد دقيق البحث والتخير
وأحمل السلاح حمل القسور
فى ثورة أمثـــالها لم يُشهر
خالدة على ممـــر الأعصر
تطهرُ الأرض من المستعمر !

وتفـــرق الزملاءُ ، كالأنبياء ، يتجهون صـــوب خيامهم
تتعجب الدنيا لما يطويه سرُّ حـــديثهم ، وكلامهم ..
ذهبوا إلى أقصىَ الخيام ، وخلفوا النار التى لا تخمـــدُ
النار بين جوانح الأبطال .. دائبة اللظى .. تتوقـــدُ !

* * *

ومضى الفتى المرموق .. من هو ياترى ذاك الفتى المرموقُ ؟
أنظر إليه وقد مضى .. فانشقَّ فى قلب الغيوب طريقُ
وبدا له ظلٌّ .. على جبل الشريف .. كمارد قهر العـــدا
يمضى ، فيمضى ظلهُ من حوله .. متطاولاً .. متزايدا ..
لو كان يبصره هناك الانجليز .. وظله يتزايدُ ..
لاستيقنوا أن الأشم الصلد .. أمسى تحتهم .. يتمايدُ !

(٩)

لعبة السلاح

سلوى .. شقيقة ذى الفقار .. تفوق فى تعليمها حد الكفاءه
وتناهز العشرين من سن الورود .. مع السذاجة والبراءه
لكنها وطنية ، تجرى الحماسة فى صميم عروقها ..
وتحب مصر .. تحبها حباً يرد لها جميع حقوقها !
كانت بمدرسة البنات الأولية ، والفصول الراقيه
للطالبات زعيمة .. تدعو وتهتف ، وهى بنت ثمانيه ..
قادت مظاهرة إلى بولاق .. فى ذاك الزمان الباكر
وتقدمت فتحية ومديحة ، ومنى .. شقيقة صابر !
لكنها لم تمض فى تعليمها ، أو تلتحق بالجامعه ..
وتتابعت سنواتها كالورد .. وهى بركن بيت قابعه ..
تقضى حوائج ذى الفقار .. وربما جلست تفكر شارده
وترى زميلات الصبى حيناً .. وحيناً لا تقابل واحده !

* * *

وأتى أوان الحرب ، واضطرب الأتون ، وطار فى الجو اللهب
وتلاطمت جند الحليفة ، فى الشوارع ، كالخضم المصطخب
وتمايل « الخنطور » .. منهم بالسكارى ، فى النهار الأوضح
وتنمروا فى عابدين ، أو الخليفة ، أو بحى المذبح ..
فى كل يوم قصة تروى .. وحادثة يفور لها الدم ..
البربرية أعلنوها فى الطريق .. فمن مشى لا يسلم ..

لكن هذا الشعب - رغم الصبر - لا ترضى الهوان كرامته
متواضع فى عزة .. مرفوعة فوق الكواكب هامته !

* * *

جاءت منى منذ الصباح تزور سلوى ، فهى أوفى صاحبه
وتمكن الإخلاص بين منى وسلوى ، فالزيارة واجبه
واستقبلتها الأخت فى الصالون ، وانسجم الحديث الشائق
وأتت لها بعصير ليمون ، له فى الكوب لون رائق
وتحدثت معها .. وكان « الصوف » موضوع الحديث الأكبر
قالت منى :

« هل تنزلين معى إلى السوق الغداة لنشترى ؟ »

قالت لها :

« والانجليز ، وقبحهم ؟ »

قالت منى :

« من يجترى ؟ »

قالت :

« سألبس حلتى »

قالت لها :

« بالله لا تتأخرى ! »

* * *

ومضت قرابة ساعة وهما تطوفان الشوارع بالضحى
واختارتا الصوف الرفيع خيوطه ، تتطلبان الأصلحا
وتهادتا فى « شيكوريل » وفى « جتنيو » .. تشهدان المعرضا

لم تخشيا ذئباً يحدث نفسه فى الطرق أن يتعرضا ..
وهناك لاح «الأمريكين» .. يموج بالإغراء ، والوجه الحسن

قالت منى :

« هيا بنا ياأخت ، نطلب صحن أرز باللبن ! »

جلست هناك منى وسلوى .. فى سكون .. والوقار عليهما ..
وإذا بجنديين من جند الحليفة .. ينظران إليهما ..
وبدت منى الحسناء ذاك اليوم أبهى ما تكون وأنضرا
فتفرسا فى وجهها ، فى شعرها ، فى صدرها .. وتفكرا ..
وأحست البنتان عدواناً ، فقررتا المسير على عجل
وتحرك الذئبان خلفهما .. يؤمان الطريق ، بلا خجل
ثم اختفى الذئبان بعض الحين ، لا يخفيهما داعى الشرف
لكنما هى خطة الحلفاء .. كيف منى تنال وتختطف ؟
وتقدمت تجرى منى الحسناء .. خوفاً .. واستبد بها القلق
فتعرضت سيارة كالذئب تعوى .. عند مفترق الطرق
وامتدت الأيدى الأثيمة ، فى صياح الهول ، واختطفت منى ..
وعلا هتاف النصر — يعرفه تشرشل ! — للجريمة معلنا ..
وتحدثت صحف الصباح بأن بنتاً ذات حسن رائع ..
عثروا بها مقتولة .. بين المقابر .. فى الإمام .. الشافعى !

***

نظرت إلى الأنباء سلوى ، والرسوم .. ودمعها متساقط
والنار فى القلب الجريح ، وصدرها بالحزن عال هابط
ورأت أخاها ذا الفقار ، فألقت الأخبار فوق المنضده
ومضت تصيح به ، وتصرخ فيه ، مزرية به ، متوعده

قالت له :

« لمتى انتظاركم ؟ أليس لمصر عهـــد عندكم ؟ »
جند الخليفه يغصبون نساء مصر . . وما رأينا جندكم !
هذى منى أخت الشهيد . . بل الشهيدة . . أى عرض يهدر ؟
إن أنتم يا قوم لم تحموا حريمكمُ . . فلن تتحرروا . . »
قال الفتى :

« يا أخت صبراً . . نحن نعمل كل ما فى وسعنا . . »
ولنا سياسات ، وتخطيط . . ونعرف ضرنا من نفعنا ! »
قالت شقيقته لتسخر منه :

« بل ذاك الكلام الفارغ . .
ولى زمان الهزل ، هذى الحرب ، هذا جرح مصر البالغ . .
أين الرجال ؟ وأين ما أعددتموه من السلاح الفاتك ؟ »
قال الفتى :
« أما الرجال فقادرون . . وقد عرفت بذاتك . .
أما السلاحُ فلا سلاحَ ! »
فحدقت فيه وقالت فى غضب :
« أو ليس عندكم الذخيرة فى مخازنها ؟ فلم لا تنتهب ؟ »
فأجاب هونا ذو الفقار . . وقد تبسم :
« فكرة تزن الذهب !
ميسورة التنفيذ . . لا تتعجليها . قد يحققها الزمن ! »
قالت وقد غلت الدماء برأسها ، والوجه بالغضب احتقن . .
ولهيب إيمان يشع بمقلتيها :

« لن تُضيع دماؤنا »
سأجهز الآن السلاح . . ومن يدى سيذوقه أعداؤنا . . »

* * *

وثبت ، وقد ملك الذهول شقيقها ، الأمر لم تتأخر
جاءت بكل زجاجة فى البيت ، تملؤها برمل أصفر
وروح بالبارود تخلطه ، وكل مدمر متفجر
قالت له :

« انظر . . فهذى الخمر . . وهى تفوق أعظم مسكر
قسما بروح منى . . الن شرب الأعادى جرعة لترنحوا
الآن نشرب من دماء الإنجليز ، ونسترق ، ، ونذبح ! »
ومضت لنافذة ، فلاح لعينها « الخنطور » . مال بركبه
قالت :

« خذوا المعصور من خمر الدما . . وستنعمون بشربه ! »
وتتابعت تهوى القذائف من يديها . . كالقنابل تنطلق
وتمزق الركب البغيض . . وسال منه دم تفيض به الطرق . .
وتوالت الأيام ، واشتهر السلاح . . فكلُّ كفة تضرب . .
« كوكتيل مولوتوف ! » . . جند الإنجليز بمثله لم يشربوا[1] . .

* * *

وأتى إلى بولاق ، من حى الزمالك ، ذات يوم أحمد
ليزور أسرة ذى الفقار ، ومثله لرفاقه يتعهد
فلقد أتاه بأن صاحبه من الجيش العتيد مشرد
وبأنه قد بات فى سجن الأجانب ، وهو فيه مهدد
لكنه ، إذ مرَّ فى حى الزمالك لاح قصرٌ أمثلُ . .
ورأى هناك موفق الدين الشريف . . على السلالم ينزلُ
ورأى الكرتة والحصان بعينه . . ورأى هدى تترجل
ورأى عليها اليشمك التركىّ . . وهى بحسنه تتجمل

---

(١) اشتهر بالفعل فى تلك الأيام سلاح شبيه بهذا عرف باسم كوكتيل مولوتوف ، ولقى عليه كثير من جنود الإنجليز حتفهم .

سبحان ربى ! صحّ ما قالوا إذاً ، وتزوجت ، ومضت هدى الله يرحمها .. فقد ذهبت بلا عود .. ويرحم أحمدا ..

* * *

طرقت يد الإخلاص باب البيت ، وانتظر الصديق على الدرج ومضى يفكر فى القتال ، وفى المصير ، وفى الزميل ، وفى الفرج وإذا بوجه مشرق القسمات .. عذب الحزن .. مكتئب الفرح .. وأحس أحمد أن باباً للسعادة والسلام قد انفتح .. لاحت له سلوى .. كما لاح الملاك ، الطاهر ، الصافى ، النقى وكأنها إنسانة علوية .. أمثالها لم تخلق .. قادته فى أدب إلى الصالون .. ثم مضت تعد له الشراب .. وأتت إليه أمها ، ذات التقى والدين .. حاسرة النقاب .. قالت له :

« يا مرحبا بك يا بنى .. »

فقال :

« أهلا مرحبا »

قالت :

« صديقك ذو الفقار يبيت فى السجن الرهيب معذبا ذهبوا به ظلماً ، بغير جريرة .. فالله منهم ينتقم ! »

وأجاب أحمد :

« ذو الفقار أخى .. وعهد إخائنا لا ينفصم ولسوف أبذل كل مجهودى .. ولكن .. هل عرفتم ما السبب ؟ عندى المحامى ، والطعام إليه أحمله .. وإن شاء الحرب فلنا وسائله ! »

فقالت :

« يا بنى .. أمثل ذلك ممكن ؟ »

فأجابها :

« هو ممكن ، لكن نؤجله . . لئلا يفطنوا ..
وأهم منـه سر تهمته .. فذاك ميسّـر لمهمتى .. »

قالت له :

« واقه لا أدرى .. فسل عن سرها سلوى ابنتى ! »

وهنا أتت سلوى ، يفيض الحسن منها ، والرواء الفائق
جاءت له بعصير ليمون ، له فى الكوب لون رائق
حتى إذا جلست قبالته ، وراحت عذبة تتحدث ..
لاحت له الفردوس ، وافرة النعيم .. وكان عنها يبحث .

قالت :

« لقد سحبوا جنود الجيش من مطروح .. حين تمردوا[1]
لم يذعنوا لقرار تسليم السلاح .. فسرّحوا ، بل شردوا ..
والضابط الممتاز فيهم ذو الفقار .. رموه فى سجن الأبد
أما عن التهم التى سيوجهون له .. فلا يدرى أحد ! »

وأجاب أحمد :

« سوف أفعل كلَّ ما فى طاقتى لنجاته ! »

قالت له سلوى :

« أخى بطلٌ . . يضحى للحمَى بحياته ! »

واستدركت :

« مادمت تسعى كى تخلصه فأنت إذا بطل ! »

وتورد الخدان منها ، حين قالت ذاك ، من فرط الخجل !

* * *

(١) وقع حادث تمرد الضباط المصريين بمرسى مطروح عام ١٩٤٢ ، إذ رفضوا تنفيذ الأوامر الصادرة لهم من الانجليز بتسليم أسلحتهم ، وعادوا بها كاملة إلى القاهرة

حتى إذا مضت الفتاة . وفرصة الأيام باتت سانحه ..
قال الفتى للامّ :

« يا أماه .. نقرأ للقران الفاتحه ! »

وجرى بذاك البيت ، فى بولاق .. فى تلك السنين الخاليه ..
عرسٌ صغيرٌ .. جمع القلبين فيه ، حب مصر الغاليه ..
سلوى وأحمد .. أى طير بالرفاء ، وبالسعادة قد صدح !
حتى إذا نسيا هموم العيش يوماً .. بعد إتمام الفرح ..
قالت له ..

« دعنا من السينما .. سنذهب للعشاء .. ونشربُ ! »

قال الفتى ..

« أو تشربينَ ؟! »

وراح ينظر للفتاة ويعجبُ ..

قالت له ..

« كوكتيلُ مولوتوف !! »

واستاقت هناك من الضحكْ

فأجابها :

« لم لا ؟ ليحى الشعب منتصراً .. ويهلك من هلك ! »

(١٠)

جيلٌ ينقضي

أخذ القطارُ يسيرُ ما بين الخطوط على الحديد وينتقل ..
ويهمُ شيئاً بعد شيءٍ .. ثم يجرى فى الطريق على عجل ..
ترك الأفاريز العديدة ، والعنابر ، والمساكن .. وانطلق
بين الحقول الناضرات ، يشق أكناف الطريق ، ويخترق
يمضى إلى شبرا ، إلى قليوب ، متجهاً إلى بنها العسل
وهناك فى صالونه « سلوى » .. بجانبه عزيزتها « أمل »
ورضيعها المحبوب « صابر » .. وهو يبكى دائباً لا يصبرُ
وهناك « أحمد » ساهمٌ . تدعوه نافذة القطار فينظرُ
لا يبصر الحقل الجميل ، ولا يرى الجاموس فيه ، ولا البقر
لا يبصر الفلاح ، تهوى كفهُ بالفأس ، طيبة الأثر
لكن يفكر فى أبيه .. فإنه فى البيت بات على خطر ..
ويحار فى هذا الوباء .. كأنه الطاعون فى الأرض انتشر ..
يسرى كما يسرى لهيب النار .. يفعل فى الهشيم وفى الحطب ..
عمَّ البلاد من « القرين »[1] .. فكيف جاء إلى الحمى ؟ ومن السبب ؟
ما هذه البلوى ؟ ألم تضع الحروب اليوم من أوزارها ؟
منذا الذى قد جاء « بالكايزا » .. ليسقى الشعب سمَّ عقارها ؟
الإنجليز .. فإنهم ، فى مصر ، أصلٌ للمصائب كلها ..
هم عقدة التفكير محكمة .. فهل آن الأوان لحلها ؟ !

* * *

(١) القرين بلدة بمحافظة الشرقية كانت أول ما ظهر بها وباء الكوليرا عام ١٩٤٧ .

وترجل الركبُ الصغيرُ ، وأشرقت « طنطا » بأنوار الضحى ..
وخلا طريق السيد البدوىّ .. نام الشعب عنه فما صحا ..
الدور مغلقة النوافذ .. والحوانيت العديدة مغلقه ..
والصمتُ ، صمت الموت ، بل صمت الوباء .. يعمُّ كلَّ المنطقه ..
وتقدم « الحنطور » .. غيرنا الزمان وما يغيرُ سيره ..
وتراقصت رأس الجواد .. وقد تهاوى السوط يصمح ظهره ..
وأطلّ أحمد لحظة ، ورأى المقام .. فراح يتلو الفاتحه ..
ومضى يحدث نفسه :

« شتان بين غد .. وبين البارحه ! »

بالأمس كان هنا يؤدى حاضراً صلواته فى المسجد
واليوم أصبح نائياً فى مصر عن شرف المقام الأحمدى !
وسرى وميض الذهن ، خطف البرق ملتمعاً .. ففكر فى عجب ..
سماه « أحمد » والداه .. تيمناً بالقرب من « شيخ العرب » !
بالأمس كان البحرُ .. بحرُ الجعفرية .. زاخراً يتلاطمُ
واليوم أصبح شارعاً فيه الحدائق ، والبناء الافخم
وزمام قريته القديمة ، بات فى كنف الطريق يضمه
وأبوه لم يصبح لها شيخاً .. فزاد مع المصائب همُّه ..
بالأمس كان يرى « سعادة » وهى كلُّ مناه .. كلُّ سعادته ..
واليوم يأتى كى يراها فى ظلال الريف .. صحبة زوجته ..
ماذا يقول لها ؟ وأين العهد لابنة عمه قبل السفر ؟
هذا هو « الحنطور » دون الباب .. شدّ لجامه .. ثم انتظر !

* * *

وتقابل الأحبابُ من بعد الغياب .. فكم لهم من مرحب !
وعلا صياح القوم .. واختلطت أحاديث العجوز مع الصبى ..
وتجمعت حول المريض ، وقد تمدد فى الفراش على ألم

أفراد أسرته .. فكانوا ، حول شيخهم ، كعقد ينتظم ..
العمُّ عبد الله ، قد بلغ المعاش .. وصار شيخاً فانيا ..
أما الدرينيُّ الكبير .. فراح يجلس من أبيه دانيا ..
وأخوه « عباس » الصغير .. الجامعيُّ .. يكاد أن يتخرّجا ..
والشيخ « نوفل » .. وهو فلاح بنى بسعادةٍ ، فتزوّجا ..
أما النساء .. فأمُّ أحمد .. وهى جالسة قبالة بعلها
ونفيسة أم الدرينى .. وهى تشبه أختها فى شكلها ..
وسعادة ، فى ثوبها الريفيِّ ، والخلخالُ زينة رجلها
وبجنبها سلوى .. مثقفة .. وليست فى الجمال كمثلها !

* * *

وجرى الحديث .. وكان نور الدين تحت غطائه يتألمُ
لكنه يصغى ، ويسمع ما يقال .. وقلما يتكلم ..
قال الفتى عباس :

« أهلا يا ابن عمى ! »

قال أحمد :

« مرحباً »

قال الفتى :

« ما حال مصر ؟ فقد أطلنا عطلة وتغيُّبا ..
إنى أحن إلى المقام بها أحنُّ إلى رحاب الجامعه ..
أبغى مواصلة الجهاد .. إلى متى فينا الأجانب طامعه ؟
أسمعت يا ابن العم .. ماذا كان منا أمس يوم القنطره ؟[1]

(١) القنطرة ، المقصود بها كوبرى عباس ، والإشارة هنا إلى حادث كوبرى عباس الثانى عام ١٩٤٧ . أما الحادث الأول فوقع فى ١٤ نوفمبر عام ١٩٣٥ ، وهو الذى وصف وصفاً دقيقاً فى الفصول الأولى من هذه الملحمة .

ثرنا على حكم السراى .. فألقيت فى النيل منا جمهره ..
كم أطلق الجند الرصاص على الشباب المستميت ، وأطلقوا ..
لكن أبطال الشباب تجمعوا زمراً ، ولم يتفرقوا ..
ورأيت أفظع ما رأت عين . شباب فى الفضاء تعلقوا ..
والنيل يبكى للضحية حين تسقط فى المياه .. وتغرق ! »

* * *

وهنا تذكر أحمد يوماً تقادمَ فوق تلك القنطرة ..
فى قلبه ، أو قلب زوجته ، له ذكرى تظل مسطره ..
ورنا إليها لحظة ، ورنت إليه .. لذكر أمس الدابر
وتجسمت فى ذهنه .. أو ذهن زوجته .. وصية صابر ..
« الانجليز هم هم أعداؤنا » . . هذى الوصية خالده
ولسوف يحفظها البنون بأسرهم .. عن والد ، أو والده ..
ولسوف يأتى اليوم . . يوم جلائهم . . لكن متى ؟ لكن متى ؟
فلنعم ذاك اليوم . . يشهد فجره شيخ . . ويملكه فتى ..
هذا هو الأمل الكبير .. لذاك سمى أحمد ابنته « أمل » . .
وصديقه البطل الشهيد . . لذاك سمى « صابراً » باسم البطل !

* * *

وتكلم الشيخ المريض .. فقال لابن أخيه قولا خافتاً :
« ثرتم على حكم السراى .. أم الدخيل ؟ »
فظل أحمد صامتا ..

ومضى يحدث عمه عباس ، قال :
« سلمتَ يا عماه . .
حكم السراى يشيع فى الوطن الفساد . ونحن لانرضاه . . »

فتبسَّم الشيخ المريض ، وقال :

« من أنتم ؟ »

فقال له الفتى :

« نحن الشباب ! »

فقال :

« عشتم يا بنىّ . . فإن يومكم أتى ! »

ومضى يحدثه ، وينظر للوجوه . . يعمها بكلامه
الشيخ نور الدين يوصيهم . . ومحض الصدق فى أحكامه . .
قال :

« اسمعوا لوصيتى . . إنى أحس اليوم دانية الأجل
الانجليز هم هم أعداؤنا ... »

فاهتمّ أحمد واعتدل . .

هــذا كلام لم يكن يوما ليسمع من أبيه مثله ..
هذا كلام المحضر المشهود .. هذا الشيخ يوصى أهله .. (1)

ومضى يقول الشيخ :

« عشنا فى الظلام .. وذاك عيش أنكد
لا .. لا تعيشوا مثلنا فى القيد .. إن الحر لا يستعبد
عباس قال اليوم عن حكم السراى مقالةً من صادق
لكن أقول لكم مقال الحقّ معترفاً .. وأشهد خالق
نحن الذين بخوفنا ، وبضعفنا ، وبكفنا .. صغنا الصنم
ماذا نخاف ؟ نخاف حكم الموت ؟ هذا الموت فينا يحتكم . .
كلُّ امرىءٍ يوماً سيلقاه .. وسوف يجىء يوم حسابه

---

(1) المحضر — المحتضر

صدق الكتاب ، وإنما « كل أمرىء رهنٌ بطىّ كتابه »[1]
فلم المذلةُ والهوان . ؟ لم الخضوع إذا لحكم الأجنبى ؟
هذى البلادُ لمن ؟ وهذا النيـــل يجرى بالثراء المخصب ؟
أ لجالسٍ فى عابدين .. لما يعانى الشعبُ لا يتألم ؟
أم غاصب قد بات فى قصر الدبارة .. يستبدُّ ويظلم ؟
الانجليز هم الألى صنعوه .. طفلا فى قشيب تمائمه ..
ولكى يقيموا ملكه .. جعلوا من الاقطاع حرًّ دعائمه !
لا تركنوا لعدوكم .. فالانجليز عدو مصر الأول ..
ووراءهم جيش من الأذناب .. يفعل فيكم ما يفعل ..
إن شئتم أن تستقل بلادكم ، وتصحح الأوضاع ..
فثلاثة أعداؤكم .. محتلكم ، والعرش ، والإقطاع ..
شدوا عليهم شدة .. فبجمعكم تتفرق الأعداء ..
لا تغفلوا عن حقكم .. حتى يتم عن البلاد جلاء ! »

* * *

فى عصر ذاك اليوم . مرَّ جماعةٌ فى الحقل فوقَ المخضرَه ..
قد نكسوا حزناً رءوسهم .. وساروا فى طريق المقبره ..
وهناك تحت الدوحة الكبرى .. وعطر الورد يلفظ روحه ..
هبطوا بنور الدين مثواه الأخير .. ووسدوه ضريحه ..
ورآه أحمد .. وهو يهبط فى الظلام ، وفى الرطوبة فانفجر ..
يبكى كما يبكى الصغيرُ . وما به ذكرى الطفولة والصغر
يبكى لجيل قد مضى .. وتحملت ذل الحياة كرامه ..
يبكى لشعب .. تحت أقدام الدخيل تلطخت أعوامه ..

---

(١) البيت لشوقى من قصيدة فى رثاء كارنارفون ، وهو مطلعها ، وكماله :
فى الموت ما أعيا وفى أسبابه كل امرىء رهن بطى كتابه !

يبكى لشيخ .. كان يخفى عنه صدق حديثه وشعوره
حتى رآه فى سرير الموت .. يكشف عنه من مستوره ..
فإذا بها الوطنيـة العلياء .. ضمتها جوانح صدره ..
وإذا به الإيمان .. مختلطاً هناك بحزنه ، وبصبره ..
وإذا بروح الشعب تغمره .. وتدعو المؤمنين لنصره ..
قد طال صبر الشعب — يا رباه ! — فانظر فى عواقب أمره !

(١١)

عهد الارهاب

مضت السنون ، وذو الفقار يفر من سجن ، ليدخل معتقل . .
طوراً يعود إلى كتيبته .. ويقطع تارة صخر الجبل
ما إن يرى فى صحبه ، حتى يرى متخفيا ، يتنكرُ . .
ووراءه « القلم السياسى »[١] الرهيب .. جهوده لا تفتر
وعيونه يقظى .. ولكن أين منها ذو الفقار المنتبه ؟
ما كان من أحد يراه فى تنكره العجيب .. فيشتبه !
فى الجيش كان على الذخيرة ، والخزائن يوم ذلك تزخر
برهيب ما جلب الجنود الانجليز من السلاح وأحضروا
فمضى يقدم للخلايا ، من صناديق الهدايا .. عن ثقه . .
نعم الهدايا للشباب ، مسدسات ، أو قنابل محرقه . .
وتسابق الأشبال ، يبتدرون فى الميدان فضل التضحية
وتتابع الإرهاب[٢] تفدية لمصر .. ويالها من تفديه !
فى حادث المترو .. وقد سكن الظلام ، وعم كل الضاحية[٣]
هطلت على جند الخليفة نار موت ، ثرة ، متواليه . .
فى حادث السينما .. وقد جلس الجنود الذاهلون ، وحملقوا ..
وإذا المقاعد بالرءوس تطايرت ، وإذا الجسوم تمزق

---

(١) كان القلم السياسى تابعا للداخلية ويقوم بأعمال الجاسوسية ، وله فظائع وأعمال رهيبة ومن حسنات الثورة أنها ألغته منذ لحظة قيامها .
(٢) المقصود بالارهاب هو أعمال الوطنيين المتواصلة ضد قوى الاحتلال وجنوده فى مصر
(٣) الضاحية — مصر الجديدة .

فى حادث النادى .. وضباط الخليفة بالصدور مرصعه
وعلى المناضد دونهم ، قد صففت للشرب أقداح الجعة !
وبنات إسرائيل .. فى عيد القيامة .. بينهم تتخطر ..
أثوابهن نظيفة .. وجسومهن من القـذارة أقـذر !
وإذا صعيدى .. يرى تحت المقاعد ، ماسحا للأحذيه
وتناولت يده القروش .. ونفسه عما يحاول راضيه ..
هل كان إلا ذا الفقار .. وقد تنـكر .. والعدو به انخدع ..
يخفى قنابله .. وأحذية الخليفة فى يديه تلتمع ..
ومضى يغادرهم على عجل .. وأصبح فى الطريق ، ولم يكد
حتى تفجرت القنابل ، تنسف النادى .. فلم يسلم أحد !

* * *

فى هذه الأثناء ، والإرهاب مثل لظى الجحيم الثائره ..
جمع الجهاد الحـــر تحت لوائه أبطال مصر الثائره ..
عرفت لهم قصص وأخبار ، على الأيام ، ترويها الصحف
عرف المعلم مصطفى ، ومعوض الحمال .. فيمن قد عرف
كان المعلم مصطفى شيخا ، عظيم الهام ، أروع ، أشقرا ..
ومعوض الحمال شرخا . يحمل الأثقال ، جلدا ، أسمرا ..
فتحا بقصر النيل ، للتوريد والتصدير ، باب المكتب
وتسلما عملا يدر عليهما ، للرزق ، حر المكسب
واستأجرا سيارة للنقل ، ما بين السويس وبور سعيد ..
تمضى بألوان البضائع للبواخر .. ثم ترجع بالحديد
وتمر فى التل الكبير ، من الضحى ، بمعسكرات الانجليز
وتعد للغد عدة كبرى تحرر بعدها الوطن العزيز
فلكم دنا ركب المعلم سافرا ، لمعسكر ، ومعسكر
ومعوض الحمال ينتهب السلاح .. ومن سواه يجترى ؟

ليبيعه الأحرار فى سوق الجهاد .. وبالأمانة ينهض
مَثلٌ يلوح من الشجاعة نادر .. وعلى المزيد يحرض
لم يكف ما رسم المعلم مصطفى ، أو ما استباح معوض
فهناك راحا يجمعان كتيبة بصدورها تتعرض ..
لا ترهب البطش الرهيب من العدو وناره .. لا ترهب
وكما يصوب نحوها « الرشاش »(1) .. فى كنف الظلام تصوب
فرق من العمال ، كم نظم النهار صفوفها فى المكتب
الآمر يلتقى فى الصباح ، ويبدأ التنفيذ بعد المغرب
فتروح بعد الظهر أفواج على درج القطار المسرع
وكأنها جيش الفداء ، بغير قنبلة يغير .. ومدفع ..
وتعود عند الفجر أفواج ، قضت ليل البطولة ساهره
وكأنها جيش بموفور الغنائم .. راجع للقاهره !

* * *

قال المعلم مصطفى ، لمعوض الحمال ، يوما :

« يا فتى ..

هى فرصة سنصيد فيها طائرين معاً ! »

فقال :

« متى ؟ متى ؟ »

عجل فديتك يا معلم ! »

قال :

« ذلك ما أريد وأرغبُ ! »

وتحركت سيارة بهما ، تشق طريقها ، بل تنهب
وتوقفت بهما لدى قصر ، رحيب بالزمالك بابه
ويلفه الصمت الرهيب ، كأنما قد هاجرت أصحابه

---

(1) الرشاش — المدفع .

فترجلا .. وتقدم البواب يبتدر المعلم أولاً ..
ومضى يقودهما إلى الصالون فى أدب .. وقال:
« ... »

فإذا بصالونٍ ، فرنسى المقاعد ، قد تموه بالذهب ..
وإذا البساط الفخم من طهران .. واللوحات آيات عجب ..
وإذا الستائر ذات أسلاك من الذهب الرقيق الخالص
وإذا أوانى الزهر ضاحكة .. كما لاحت لعين الفاحص
وإذا بصدر الحجرة الحمراء .. يحمل رائعاً رسم الملك ..
كالشمس تسطع حولها صور التوابع .. فى مدار كالفلك ..
وإذا بسحر مبهم الخطفات ، بين الظل واللمعان ..
جعل المعلم مصطفى ، ومعوض الحمال .. يندهشان !

* * *

وأزيح ستر من وراء الباب ، شفاف الحرير ، مهفهفُ
وتقدم الشيخ الوقور ، يهش للضيفين .. أو يتلطف
هذا الثرى ، موفق الدين الشريف .. وقد سمعنا باسمه ..
ربّ الضياع العامرات ، وذو النبالة والغنى فى قومه ..
متعهدٌ ، ومورد لقصور مولاه المليك الصالح ..
ومورد للانجليز .. يمدهم من زرعـه بموالح ..
شرُّ الرجال ، وشر أصحاب الثراء ، وسفلة الوجهاء ..
من يدعون الباقيات الصالحات .. وهم من العمـلاء !

* * *

وأتى شراب من عصير الورد ، قدمه لهم بعض الخـدم
وتقدم الشيخ الثرى بعلبة الحلوى . وأتبع بالقسم ..
وجرى الحديث .. تكلم الشيخ الثرى إلى المعـلم مصطفى
ومعوض الحمال بالنظر الخفى ، والاستماع .. قد اكتفى

قال المعلم :

« قد حضرت كما طلبت فكلنا فى خدمتك ! »

قال الثرى :

« وكلنا نسعى إلى مَرضاةِ مولانا الملك ! »

ومضى يقول :

« لقد سمعتمْ بالحوادث ، والأمور الطائشه
وحثالة الأوشاب ، والأحزاب ترتكب الجرائم فاحشه ..
فى كل يوم يقتلون مجندا ، أو ينهبون معسكرا ..
عظمت جرائمهم ، وعمت كل أنحاء المدائن والقرى
ولقد علمتم أن هذا الطيش مجنون ، وخيم العاقبه
هذى هى الوطنية الحمقاء .. بل هذى الدعاوى الكاذبه ! »

قال المعلم مصطفى :

« يتوهمون الانجليز ستخرج ..
وهناك عند مشارف « التاميز »[1] ليث واقف يتفرج ! »

فتبسم الشيخ الثرى ، وقال وهو مغالب بسماته ..

« أحسنت وصف الانجليزى الشجاع .. فتلك بعض صفاته ! »

وتململ الحمال .. إلا أنه بصغيرة لم ينطق
سمع الأليم المر من بدء الكلام .. وسوف يسمع ما بقى
وتكلم الشيخ الثرى ، فقال :

« انصت يا معلم ، وافهم ..
إنى دعوتك كى أسر إليك أمراً للمليك الأعظم ..
فلقد عرفنا أنك الشهم الجرئ من الرجال الأروع
متعهد .. تمضى إلى التل الكبير كما تشاء .. وترجع

---

(١) مشارف التاميز ، أى موضع مصبه من البحر حيث تقع مدينة لندن .

القصر لا يرتاب فيك .. فأنت تعمل دائبا للمكسب
لكن يهاب الفوضوية فى البلاد ، وسعى كل مخرب
ويريد منك ، ومن صديقك ، أن تكونا عونه .. بل عينه
تتجسسان له على الإرهاب هل جمع السلاح ؟ وأين هو ؟
ولسوف نعقد صفقة .. حتى نداري سر كل مقابله ..
سيكون فيما بيننا عمل .. وندفع أجر كل مقاولة ..
ولك الجزاء الوفر .. حقك يا معلم تقتضيه ، وواجبك
ولسوف تحظى بالرضى السامى على الأيام .. أنت وصاحبك »

* * *

قال المعلم مصطفى ، متظاهراً بقبـــول ما عرض الثرى ..
ويمينه تمتـــد نحو المال ، تأخذ بالنصيب الأوفر :
« نحن الفداء لأمر مولانا .. ونحن جنوده .. فليأمر ! »
وقال الثرى :

« حذار قتل الانجليز .. ونسف أى معسكر !
حل دون ذلك مصطفى .. فالانجليز هم هم .. حلفاؤنا ... »
وتململ الحمال .. صاح :

« الانجليز هم أعداؤنا .. »

وإذا بصوت من وراء الستر يعرفه معوض جيدا
لكن تحاشى رده ، إذ كان حمالا ، ولم يك سيداً ..
نادى رفيقا :

« يا موفق .. لم تكن فيما فعلت موفقا
أوثقت فى الأفعى ؟ ! »

وزاغ موفق الدين الشريف ، وحملقا ..
وإذا بكف للمعلم مصطفى ، تهوى على الحمال .. تلهب خده ..
وإذا بأمر منه ، يجعل ذلك المفتون .. يلزم حده

* * *

عاد المعلم مصطفى ، ومعوض الحمال نحو المكتب
يتعاتبان .. وإنما رجعا إليه بثروة ، وبمكسب ..
وتقدما لينفذا الخطط الجديدة ، والأمور المعضلة ..
لم يمض بعض الوقت حتى روعت حى الزمالك .. قنبلة !
نسفت به قصراً .. أقيمت فيه آيات السعادة والترف
وتهاوت الجدران واختلط التراب مع النبالة والشرف !
لم ينج رب القصر من موت .. ولا كتب الأمان لزوجته
إلا لأنهما وشيكا غادراه .. لينزلا فى ضيعته !

(١٢)

متطوع فى فلسطين

فى هــــذه الأيام كانت فى فلسطين المعارك تحتدم
وتمر أفواج من المتطوعين إلى الجهـاد . . . عـــلى قَدَم
حمل الشباب سلاحَــه . . هانت عليه الروح . . للموت اقتحم
ليفض من أسطورة الوطن اليهودى البغيض . . وينتقم . .
من ثلث قرن وهى داء فى فؤاد الشرق يسرَح سمُّـه . .
هى حلم الاستعمار فى أرض العروبةِ . . . لا تحقق حلمه . .
هى وعد بلفور[1] الذى قد جاد بما ورثته . . أمه !
هى مجد صهيون القديم ، وزعمه أن يستردَّ ، ووهمه . . .
هى شوكة مرشوقة فى جنب أبناء العروبة . . . داميه
هى رأس جسر للعدو . . . غـداة تنطلق المعارك حاميه
هى حــــلم إسرائيل فى إنشاء أوســـع دولة متراميه
النيل فيهـا والفرات . . . تروح قاصية ، وتقبل دانيه !
لم لا يكون سبيل ذاك الحلم ، والملك العريض المغتصب
تشريد أبناء البلاد المـالـكين لهـا ... وإذلال العرب ؟
وإباحة القتل الرهيب ، من الرجال أو النساء . . . بلا سبب ؟
لا دين يعرفه اليهود . . ولا ضمائر . . للحصول على الذهب !

* * *

(١) بلفور هو وزير خارجية بريطانيا اليهودى ، الذى وعد اليهود عام ١٩١٧ بإنشاء وطن قومى لهم فى فلسطين . . وقال فى تصريحه لحاييم وايزمان ممثل اليهود عقب جلسة مجلس الوزراء البريطانى التى اتخذ فيها ذلك القرار « إن المولود ذكر ! » . .

نشب القتال غداة أخلى الإنجليز وجيشهم أرض البلاد
هم أسلموها لليهود . . . فأسلموها للنذالة ، والفساد . . .
فتحرك الجيش الأبي بمصر . . . مخترقا دروب القاهــــره . .
تثب القلوب لوقــــع موسيقاه . . تبتدر المعارك ظافره . . .
وتقدم المتطوعون ليبذلوا دون الحمى أرواحهم . . .
خرجوا على عجل ، لكى يضعوا بأفئدة اليهود سلاحهم . . .
ذكروا النبي[1] .. وكيف أجلاهم .. وبدد فى الجزيرة شملهم
لقى الجدود مصيرهم . . ولسوف يلقاه الخلائف مثلهم !
إن اليهود عدو هـذا الخلق طرا .. حاربوا أم سالموا . . .
لو تم إجلاء اليهود عن البسيطة .. لاستراح العالم !

* * *

فى زمرة خرجت على الأقدام تدفعها الحماسة والغضب
خرج الفدائى ، الفتى « عباس » .. يثأر للعروبة والعرب
ولذاك خف لدار بعض رفاقه ، كى يستشير ويقترح
قال الصديق :

« لقد سمعت بأن باباً للتطوع قد فتح !
باب العلى والمجد يا عباس ! »

قال :

« ونحن لا نتردد
لكننا لسنا من الجيش المحارب ! »

قال :

« ذلك أرشد
سنكون فى المتطوعين ، مع الفدائيين .. نحن الأسبق
نحن الطليعة . نحن يا عباس . . ذاك هو الجهاد الأصدق ! »

(١) أجلى النبي صلى الله عليه وسلم اليهود العرب عن المدينة ثم عن خيبر ، ثم أمر بجلائهم عن شبه جزيرة العرب كلها ، وقد تم ذلك .

وأجابه عباس :

« والمتطوعون .. أيخرجون بلا نظام ؟ »

فأجاب صاحبه :

« وهمت ، فإننا سنكون فى صدر الصدام ..

نحن الكتيبة فى السلاح الحر ، ساحقة الأعادى ما حقه ! »

وهنا تهلل وجه عباس ، وصاح :

« إذاً ، فنحن الصاعقه ! »

* * *

خرج الفتى ، وصديقه ، متطوعين ، لينقذا أرض الحمى

لحقا بأبطال العروبة ، من جميع بلادها .. لم يحجها ..

من مصر ، والسودان ، من مراكش ، من تونس ، من ليبيا ..

ومن الحجاز ، من الشآم ، من العراق . تسيل فيضاً جاريا

نزلا العريش مع الجنود على الضحى .. ومن العريش إلى رفح

وتقدما بين الصفوف لغزة .. رغم الهجير وما لفح ..

واستعرض البطل الفدائى ، الكمى جنوده .. عبد العزيز !

ورآه عباس ، فقال :

« على يدى هذا جلاء الإنجليز ! »

ومضى يفكر فى شئون بلاده ، بل فى عجيب أمورها

ويقول :

« فينا الأسد والأبطال .. ثم نذل عن تحريرها ؟

ها نحن جيش بالسلاح مدجج ، خاض المعارك ظافره ..

يحمى فلسطين القريبة ، والعدو مرابط فى القاهره ..

والانجليز هم هم أعداؤنا ... ما نبتغى بجهادنا ؟

نجلى اليهود ، أم الأولى طال احتلالهم لأرض بلادنا ؟

ما الفرق بين الإنجليز ، وبين شذاذ اليهود المارقين ؟

لا فرق بينهم .. قراصنة البحار كسفلة المستعمرين ! »
وهنا تنبه من خواطره .. فقائده إليه تقدما ..
ومضى يصافحه ، يشدُّ على اليمين مشجعا .. وتبسما ..
فى لحظةٍ ما كان يعدلها لديه سوى خروج الانجليز ..
عباس فى الميدان جندى .. تصافح كفه عبد العزيز !

* * *

وتقدم البطل الكمى إلى العدو .. وجنده من خلفه
نشر الطلائع فى ربى الوادى .. فهل نظر العدو لحتفه ؟
فى قمة الجبل النضير ، وتحت أشجار المروج اليانعه
وحدائق الزيتون تضحك ، وهى للأُسد الحصون المانعه ..
من دير مارِيا ، تسير إلى الخليل ، وبيت لحم .. فرقته
وتزلزَل الأرض المقدسة الحبيبة .. حين تظهر قوَّته ..
أبدا تراه على الطريق ، مشجعاً ، ومحرضا ، ومباركا
وإذا دنا منه العدو ، تراه ليثا بالسلاح مشاركا ..
نطحت كتائبه العدا .. من قلعة فى الأرض أو مستعمره ..
وتقدمت عند الغروب لبئر سبع .. باللواء مظفره ..
ومضت تطوف قوية حول الخليل .. على الدوام مدججه
نار الحماسةِ والقداسةِ فى الصدور وفى النفوس مؤججه ..
حتى إذا انفتح الطريق ، وصار درباً للعبور ممهداً ..
دخلت جموع الجيش ظافرة لتسحق كل ما حشد العدا ..

* * *

وتفكر البطل الكمى .. ومر يوما فى صفوف رجاله ..
يبغى رسولا يطمئن إلى الهدى والصدق فى إرساله
فاختار « عباساً » .. لما ألفاه من إخلاصه وبسالته
وهناك أنخصه لفالوجا .. وزوده بسر رسالته ..

لتكون بين الجيش والمتطوعين .. له صلات كافيه ..
وليكشف البطل الطريق على العدو .. فما لهم من باقيه !
وقف الكمى يودع الشبل الرسول .. له حديث مودع ..
وقف الكمى على الطريق لبيت لحم .. فى الفسيح الممرع ..
حتى إذا انطلق الرسول ، وغاب عن عينيه . . قال يشيعه :
« باركه يا ربى ! »
وحول عنه ناظره ، وفاضت أدمعه !

* * *

ومضى يسير على الطريق ، إلى المعسكر ، والمواقع .. وحده ..
وأصاب هاتفه[1] فراح من المكان به يخاطب جنده
ورمى بمقلته إلى أقصى الطريق . . هناك . . حيث المعركه ..
وتنهد البطل الكمى ، وقد رأى شبح الردى والتهلكه
وتقبضت يده على الغدارة السوداء طى حزامه ..
وتذكر الوطن الحبيب .. وما يقول الشعب فى أحكامه ..
ومضى يغمغم قائلا :
« هذى معاركنا .. فهل نستشهد ؟
ماذا يقول الناس عنا فى غد ؟ ماذا يجىء به الغد ؟ »
وأجال نظرته الأخيرة .. فى حمى ذاك المكان الرائع ..
ولمقعد فوق الطريق .. احيط من أزهاره ببدائع ..
ومضى يقول :
« أجل .. هنا قبرى وتمثالى .. كذا يجزى البطل !
والمقعد الحجرى راحة زائر ، أو قاصد .. صعد الجبل !
سيجىء زوار إلىّ .. وسوف يأتى ابنى .. يفاخر بالأب ..
ويقول « فى هذا المكان مضى مع الأبطال حر المذهب » . .

(١) الهاتف — المسرة ، التليفون .

وكذلك البطل الشجاع إذا قضى ، وكذلك الحر الأبى ..
يختار أشرف ميتة .. فى الوقت منه ، والمكان الأنسب ! »

* * *

ثم انثنى بعد الغروب .. وسرحة الوادى تفيض زهورها
وحدائق الزيتون،فى كنف الدجى .. أخذت تعودطيورها..
وهناك أنسى لفظة السر اللعينة .. فى المروج المائشة ..
وتكلم القدر الرهيب .. وعبرت عنه الرصاصة .. طائشة !

* * *

فى أرض فالوجا .. تجمعت الجنود،وحوصرت . لا تخرج ..
فى موقف أبطال مصرَ إلى منافذه الدقيقة .. أحرجوا ..
هى خدعة الحرب الكبيرة ، إنما وضعت لإذلال العرَب
خرجت جيوشهم القوية ُ سبعة .. كالدب أقبل فى الشهب .. (1)
لكن قيادتهم . . تمثلت الخيانة عند أصل جذورها . .
قبلت لأمتها الهزيمة ، رغم قوة بأسها ، وظهورها . .
فى ضفة الأردن « عبد الله » . . يتخذ المغامر (2) قائده . .
وبمصر « فاروق » . . يبيع الجيش أسلحة القتال الفاسده . .
أما العراق ، فلم يزل « عبد الإله » بجيشه متآمراً . .
قصر الزهور يرى ويشهد كيف اصدر للجنود أوامراً (3)
ما أسوأ الحال التى بلغت إليها اليوم أقدار البلاد . .
لو لم يكن فى أرض « فالوجا » فريق من طلائع « منقباد » !

---

(1) اشارة الى أن جيوش البلاد العربية السبعة فى حرب فلسطين كانت أشبه بالنجوم التى يتألف منها الدب الأكبر فى السماء .

(2) المغامر هو جلوب البريطانى قائد جيش شرق الأردن .

(3) كان عبد الإله فى بغداد يتبع سياسة تجميد الجيش العراقى فى حرب فلسطين ، ولذلك لم يصدر اليهم أمرا بالتقدم ، وهى السياسة التى أطلق عليها التعبير المشهور « ماكو أوامر ! »

جلسوا إلى نار هنالك ، فى الربيع على شفير الخندق
يتحدثون حديثهم من قبل . . فعل الهامس المترفق . .
قال الفتى المرموق :

« ها قد ضمنا ياصحب ميدان القتال . .
الجيش زهرته بفالوجا . . وجيش الانجليز على القنال . .
تمت مكيدتهم . . وصرنا والعدو أمامنا ، ووراءنا . .
لم يقصدوا والله إلا سحقنا . . فمتى نرى أعداءنا ؟
إنى لمست على الطريق ، من الخليل لبئر سبع . مشهدا . .
جبن اليهود وذلهم . . لا تعجبوا . . ليس اليهود هم العدا . .
الغرب ملكهم فلسطين العزيزة . . إنه سبب الشقا . .
هو وعد بلفور البعيد ، وعهد روزفلت القريب تحققا . .
لكن . . هنالك ما يؤرقنا . . أجل . . أمرٌ أجل وأخطر... »
ومضى يفكر ساهماً . . .

قالوا له :

« ماذا هناك؟ »

وفكروا . . .

قال الفتى المرموق :

« أصبحنا ومشكلة المشاكل ظاهره . .
هى عقدةٌ ، ليست تحلُّ هنا . . ولكن حلها فى القاهره . .
الجيش حر . . ثابت الأركان . . لكن القيادة فاسده
لابد للجيش المظفر أن يثور . . وان ينحى قائده
لم يبق فى فاروق من أمل . . أجل يارفقتى ضاع الأمل
وأراه يغرق فى مباذله . . وهل يجدى الخواء المبتذل ؟
إن نحن عدنا سالمين لمصر . . بعد حصارنا . . فإلى العمل . .
وإلى الجهاد . . وثورة فى الجيش . ترفع هامنا بين الدول ! »

* * *

هذا هو العهد القديم بمنقباد . . سعيره يتوهج
مضت السنون العشر تذكى ناره . . والبوم حان المخرج !

(١٣)

حـريق القـاهرة

ما أعجب الأيام تحمل فى ثناياها المواعظ والعبر
وتبدد المعسول من حلم الطفولة فى تجاريب الكبر
لكنها تمضى .. فلا تبلى من الأرواح ماتبلى الجسد
كم من فتى شيخ ! وشيخ فى العزيمة والشجاعة كالأسد !
وأعز آمال الفتى ورؤاه فى عهد الشباب الأنضر
سرعان ماتنسى وتفقد فى متاهات الجهاد الأكبر ..
لكن آمال الشعوب يظـــل حر لهيبهـــا يتوقدُ
هى فى النفوس حبيسة طول المدى .. حتى يحين الموعد !

* * *

أرأيت أحمد بعد أن مضت السنون، وحاز حد الأربعين
وغداً أبا لثلاثة .. أمل، وصابر، والصغيرة ياسمين !
وغداً يؤلف مايشاء من المباحث والفصول وينشر
وابتاع مطبعة بباب الخلق، تبسط رزقه أو تقدر
فيها الغناء عن التوظف .. ياله قيداً، وإن يك من ذهب !
يقضى سحابة يومه فيها، وشطراً منه فى دار الكتب ..
درجاتها العلياءُ كم شهدته — والبابُ المطعم بالصدف
ورأته قاعات المطالعة الفسيحة .. وهو يقرأ فى الصحف
شغلاه تحرير البلاد من العدو، وطفرةُ للمجتمع ..
ونداؤه :
« يا مصر .. هبى من سباتك .. فاللهيبُ قد اندلع ! »

نعم الأمين على الرسالة منذ أيام الشباب الأول ..
رغم العوائق ، والمعايش ، والبنين ، وكل خطب معضل
فلكم أعد هناك منشوراته .. ولكم أدار المطبعة ..
وبجنبه دار المحافظة الرهيبة . منظرٌ ما أبشعه !

* * *

لكنه عرف « الكلوب » .. فراح يجلس فيه بعد المغرب(١)
فى رفقة جدد عليه ، وكم خبيث فى الرفاق وطيب
والانجليز ، عجائز النادى .. لهم خلف الزجاج مجالسُ .
كم سحنة مقلوبة .. والوجه فى الكأس البشوشة عابسٌ
لكن أحمد والرفاق لهم بقاصية المكان المنضده
فى موضع كشف الطريق لهم ، وأعجز عابراً أن يشهده !

* * *

جلسوا هناك عشية يتسامرون .. فراح أحمد يسألُ :
« ما نجمُ صاحبكم ؟ »
فقال له صديقٌ :
« عن قريب يأفلُ ! »
وأجاب ثان :
« هل علمتم ما أصيب به ، ففاق خسائره ؟
ذهبت محاسنُ .. يارفاق .. ضحية .. عند احتراق الطائره ! »
قالوا :
« محاسن ؟ ! »
عند ذلك راح فى التفكير يغرق أحمدُ
قال :
« التى كنا عرفناها ، ونحن مع الشباب نعربدُ ..

(١) الكلوب — النادى .

كانت فتاة الليل .. يعرفها الجميعُ لكل حب شاخصه:
وعرفتها تلك الليالى .. وهى فى ملهى رجاء ..راقصه ! »
قال المحدث :

« من محاسن هذه ؟ ما شأنها ، ماخطبها ؟ »

فأجاب صاحبه :

« لقد كان المليكُ يعزها ، ويحبها ! »

قال الفتى :

« أيحب راقصة .. ويخلعُ زوجهُ وبناته ؟ »
قال الصديق له :

« ولم لا .. وهو يغصبُ ذى .. ويخطفُ هاته ؟ »
وأجاب ثالثهم :

« أجل .. هذا المصلى للخداع بلا وضوء !
هذا الذى كنا نراه بشير إحسان « فعاد نذير سوء ! »
وتضاحك الزملاء فى مرح .. ولكن قال أحمد :
« ويلكم !
لا ترفعوا أصواتكم .فلهالجواسيسُ الموائلُ حولكم..
أو ما علمتم أنه الذاتُ المصونةُ .. لاتمس .. على المدى
والعيبُ فى ذات المليك .عقابهالسجن الرهيب..مؤبدا ؟»

* * *

ومشى إلى الدار الحبيبة وحده..وخلت من الناس السبل
وأتته سلوى بالعشاء . .وكان مهموم الفؤاد . . فما أكل
وتكلم المذياع . . وانطلق البيان إلى الفضاء مجلجلا . .
صوت يشق عليه جوف الليل ، يطلق ثورة وقنابلا . .
صوت المذيع يقول :

« .. معركة القتال تدور فى إصرارها ..

منذ الصباح قد أنبرت شرط لمعركة القنال ونارها . .
ضربوا لآخر طلقةٍ . صمدوا لآخر لحظةٍ . . لم يسلموا
قد لقنوا الأعداء درسا قاسياً . . لو كان غرٌ يفهم . .
آلتى ، معالى ، القائد ابن الجابرىّ . . اليهم بأوامره ..
: لا تنثنوا حتى وإن نفد الرصاص لديكمُ عن آخره ..
بل حاربوا بثباتكم ، بجنانكم ، بقلوبكم ، بصدوركم ..
مصر العزيزة سوف تفخر دائماً .. بحماسكم ، وشعوركم ! »

* * *

وتعجبت سلوى ، فصاحت :

« ياحمادة ! »

وهى ترجف ثائره . .

« القائد ابن الجابرىّ .. هو الذى يعطى الجنود أوامره . .
عجباً له .. أيقيم فى ذهبيةٍ كالقصر عند المنيلِ ..
ويديرُ معركة القنالِ . . مضحيا بشبابنا المستبسل ؟
ولعله أخذ المسرة . . وهو يستلق .. بحجرة نومهِ . .
ليدير معركة القنالِ بأذنهِ . . ويريح متعبَ جسمهِ !
أترى المفارقة الغريبه ؟ ! »

قال أحمد :

« لا غرابة فاعلمى ..

هذا الوصولىُّ الذى أضحى لسيده سوارَ المعصم . .
كنا نسميه الزعيم ، ولم يزل غضّ الإهاب شبابه . .
فغدا معاليه وزير العبقرية . . فالجميع يهابه . . »
قالت :

« كذاك الانجليز تهاب سطوته ! »

وراحت تضحكُ

وتقول :

« قائدنا بمعركة القنال ، له السلاح الأفتك ..
وكتائب الشـــهداء يبلغها على حبل المسرّة أمره ..
وبنادق الصدأ القديمة صوتها عبر الفضاء يسره.
لا ياحمادة .. هانت الأوطان .. والفيضان سال على الرئى
شعبٌ يضحى بالدماء .. وحاكم لم يحتشم أن يكذبا ..
إن كان أبطال بمعركة القنال ، على الرصاص الطائر ..
فهم الجنود المؤمنون بحق مصر من الشباب الثائر ! »

* * *

وبدا صباحٌ عابس القسمات ، راح يلف وجه العاصمه
وتواترت منذ الضحى الأنباء ، عن سحب الدخان القاتمه ..
وازداد أحمد دهشة لما مشى فى الظهر نحو المطبعه
فرأى «الكلوب».. أتى اللهيب عليه..والتهم النواحى الأربعه
والإنجليز ، عجائز النادى ، وهم حول الموائد ، أحرقوا..
وحثالة الغوغاء صاخبة . . وأحمد لايكاد يصدق ..
فمشى مع الماشين .. لايدرى له هدفا .. ولا يدرى أحد
ورأى الحريق يشب فى ريفولى .وفى الأوبرا.ويزأر فى شبرد!
ورأى اللصوص على المتاجر يسرقون ، وينهبون ثمينها .
ورأى الغداة مدينة شوهاء ، تطلق كالجحيم لعينها ..
ومضى يحدث نفسه ، ويقول :

« لا حكام فى هذا البلد ..
قد أطلق الشر العنان لنفسه .. فالنار تزأر كالأسد ..
منذا الذى شب الحريق ؟ ومن له فى أن يشب المصلحه ؟ »
ويعود ينظر حوله ، فيرى حوانيت الطريق مفتحة ..
النهب فيها كاللهيب . . كلاهما نار الجريمة تستعر ..

هل يسمعون حسيسها ؟ أم أنها الفوضى تثور وتنفجر ؟
ويقول :

« مهما كان من أمر الخلايا ، والجيوب الثائره
فالسر كل السر . . واللغز المعمى . . فى حريق القاهرة ! »

* * *

وأصابه الوصب الشديد ، فعاد منحدر النهار لداره
ليرى بنيه وزوجه . . ويقص ماقد راع من أخباره
وهناك مر بعابدين . . فأبصرت عيناه أعجب منظر
رتل وراء القصر . من باشا يخون ، وضابط لا يجترى .
شهدوا الوليمة ، والغداء الفخم ، واستمعوا لما قال الملك
عن مجد آباء له . سادوا على الدنيا ، وخاضوا المعترك .
سمعوا الحديث مطأطئين رءوسهم . . ومليكهم يتشدق . .
لا يرفعون رءوسهم إلا ليبتسموا له . . ويصفقوا . .
الذل يضرب فوق مجلسهم رواقا . لاتبين ستائره
والبغى ، لورأت العيون ، تدور حول الجالسين دوائره
والمجد . . لاح لبعضهم . . لكنهم جلسوا هناك ليشهدوا
ويدبروا للنصر محكم أمرهم . . ويذللوا ، ويمهدوا ..
لا تحسبن مجالس السلطان إذ هى بالتملق زاخره
تخلو من الشرف الرفيع ، تعد عدته النفوس الطاهره !

* * *

لكن أحد لم يكن يدرى ، فذاك السر يضمره الغد
فضى يمنى نفسه ، ويصانع الأقدار ، أو يتوعد . .
شغلاه تحرير البلاد من العدو ، وطفرة للمجتمع ..
ونداؤه :

« يامصر .. هى من سباتك .. فاللهيب قد اندلع »

(١٤)

نداء مع الفجر

مضت الشهور الستة السوداء[١] مثقـلة بأعباء الزمن ..
والشعبُ فى السجن الكبير من الغروب .. فمن يفكر فى الوطن ؟
أما صغيرات السجون فإنها ازدحمت بأخـلاطٍ عجب ..
باللص ، والصحفى ، والحر المجاهد ، والمفوه إن خطب ..
وغدت وسائل الانتقام لمن أراد قريبـة ، وميسره ..
وتنمر الإقطاع فى الريف الحزين .. فياله ! ماأحقـره !
بكفور نجمٍ ، أو بهوت[٢] .. له حوادث سوف يرويها الأبد ..
ودم من الشعب البرىء يسيلُ تحت رصاص عات مستبد ..
فلذاك أنشأ أحمـد المنشور .. وانطلقت تدور المطبعه ..
وإذا بشرطىٍّ يداهمه .. وفيض الحـبر يغرق إصبعه ..
وجريمة الشرف الرفيع تطـل من شرر بدا بعيونهِ ..
وكذاك سيق إلى العقوبة أحمـد .. وكتابه بيمينه !
فى سجن الاستئناف يقضى فى جريمتـه شهوراً أربعه ..
فالله فى أولاده ، فى زوجـه ، فى نفسه ، فى المطبعه !
وهناك فى زنزانة ظلماء ، بات تلفـه أحزانهُ ..

---

(١) من حريق القاهرة فى ٢٦ يناير الى خروج فاروق فى ٢٦ أغسطس عام ١٩٥٢

(٢) كانت كفور نجم اقطاعاً للأمير محمد على من الأسرة المالكة السابقة ، كما كانت بهوت واقعة فى اقطاع أسرة البدراوى وقد وقعت فيهما ثورتان معروفتان من الفلاحين قابلهما الاقطاعيون بقسوة وعنف مما أثار الشعور الوطنى وقتئذ ضد الاقطاع وأساليبه الوحشية .

يدعو السماء .. يحول بينهما جدار السجن أو قضبانه
والليل كالظلم الرهيب ، تـكاد منه روح أحمد تزهق
والنجم فى الأفق البعيد .. كأنه أمل ضعيف .. يخفق ..
لايسمع الأخبار عما راح فيـــــــه شعبه يتخبط ..
وعن المهانة والنفـاق .. وعن وزارات تقوم وتسقط
حتى أتى السجان يوماً .. قال :

« أبشر .. فى الصباح ستخرج ..
فليهنكِ الإفراج » !

قال :

« متى عن الوطن المعذب يُفرَج ؟ »
ومشى إلى عرض الطريق .. يؤوده ظلم الزمان وقسوته[1]
وكأنه الشيخ المحطم .. شاه منظـــــــــــــره .. وطالت لحيته !

* * *

قالت له سلوى :

« حمادة ! لست وحدك حين تملك صحتك
إن كان حبك مصر قد ملك الفؤاد .. فأين حبك زوجتك ؟ »
فتبسم المكدود من هم الزمان ، لحب سلوى الدافىء
وأصاخ وهى تقول :

« هيا نلتمس لليوم نسمَ الشاطىءِ .
نمضى لرأس البر .. فى كنف الطبيعة ، والهدوء الشامل ..
لتريح أعصاباً محطمــــــــة ،وترجع بالشفاء الكامل ..
وليمرح الأطفال فـــــــــوق الشط ، فهو لهم مراح طيب
إن نحن لم نلعب ، فماذا يمنع الأطفال من أن يلعبوا ؟ »

---

(١) يؤوده : يرهقه ، وفى الذكر الحكيم (ولا يؤوده حفظهما) .

ومضى القطار بهم إلى دمياط .. يحمل أسرة متهالكة
وتبسم النيل الجميل .. يسوق فى عرض المياه .. فلائكه[1]
وتلاطم البحر الخضم . . وجاء يسرع من بعيد موجه . .
وتسابق الأطفال فوق الرمل .. واتجهت لأحمد زوجه
قالت :

« لقد سعد الصغار .. وأنت أيضاً يا حمادة أسعد
فلقد أراك الآن موفور الشباب .. ونور وجهك يشهد ! »
فأجاب مبتهجا بما قالت :

« أحقاً هكذا ؟ »

قالت :

« أجل . .
لكنني مازلت ألحظ ياحمادة أن ذهنك مشتغل . .
الصحف تقرؤها مطولة ، وأنباء الإذاعة موجزه . .
تصغى لها ، متتبعاً خبراً ، برأس التين ، أو بالمنتزه . .
وشغلت بالمستوزرين ، وبالوزارة .. هل أهمك أمرهم ؟
أم هل دعيت لكى تؤلفها .. فأنت بدقة تختارهم ؟ »
فأجاب أحمد :

« كيف ياسلوى نطقت ؟ أليس يشغلك الحمى ؟
غدت البلاد بموقف يجرى له الأحرار أدمعهم دماً ..
هذا المعربد فى القصور ، ولست أدرى من جنون أو مرح
وكأن قضبان الحديقة حطمت .. وكأنه وحش سرح
هو ذا يؤلف كل يوم فى البلاد وزارة من عصبته
ويذل أحرار البلاد ، فكلهم متخوف من سطوته
الله يعلم ، لا خلاص لنا ، ولا أمل لدى أولادنا

(١) فلائك : جمع فلوكة ، وهى القوارب النيلية .

إلا بتلك الثورة الكبرى .. ولكن .. أين جيش بلادنا ؟ »

* * *

ذهب الجميع لنزهة عنـــد اللسان[1] مع الغروب المحدق
والشمس تلقى حر أكوام النضـــار ، على البساط الأزرق
فى موقف ضم الفرات إلى الأجاج .. يذوب فيه ويلتقى
والنيـــل فى البحر الخضم يغوص .. فعل الواله المتعشق
وهناك أحمـــد ساهم ! متفكر ، يطوى بنظرته الابد
ماض يحدث نفسه :

« إن كان هذا العذب بالملح اتحد
فلأى شىء لا تتم الوحـــدة الكبرى لشعب مضطهد ؟
ولأى شىء لا تتم الوثبة العظمى .. لتحرير البـــلد ؟ »

* * *

ثم انقضى الليل الطـــويل ، ولم ينم إلا غراراً أحمد
ويحس أن لابد من حدث رهيب ، سوف يحمله الغد
حتى بدا الفجر الجديد .. فهم يبتدر الإذاعة مسرعا
فأبى المؤشر أن يشير .. وجاء صـــوت ندائه متقطعا
وتجمع المصطاف ، وازدحموا . . وسائلهم يسائل : « ما الخبر ؟
ماذا جرى فى مصر ؟ مـــاذا حطم الأسلاك ؟ جن أم بشر ؟ »
والشمس باسمة . . على الكون السعيد . . لها الضيـاء المنتشر
ليست بآبهة لما يجرى . . ألا طاب الشعـاع ومـا غمـــر . .
فكان هذا الصبح من عمر الزمان . . هو الرجاء المنتظر . .
فى لحظة خشع الزمـان لهـا . . وراح مجلجلا صوت القدر !

* * *

وتكلم المذياع . . لكن . . جاء صـــوت ليس يعرفه أحد . .

---

(١) اللسان هو ملتقى فرع دمياط من النيل بمياه البحر الأبيض المتوسط عند أقصى رأس البر . وهو مكان ساحر الجمال وبخاصة عند الغروب .

حملته أمواج الأثير . . فراح يرعش كل روح فى جسـد
ويقول :

« إن الجيش ثار على الفساد .. وأعلن اليوم الغضب
ودعا لتطهير البلاد من العدا . . والأمـر للجيش استتب . .
وغدت موازين القوى بيمينه . . منـذ الصباح البـاكر . .
وانضم جيش الشعب ، فى شرف السلاح ، إلى الخضم الثائر ! »

* * *

وتفرقت زمـر ، وعادت تلتقى فى الظهـر حول الأجهزه
وتوالت الأنباء مفصحة بما يجـرى ، ولكن موجـزه . .
وجرى حديث الدس . . واستشرى رهيب الهمس . . حول الموقف
والنـاس يوم الروع ، بين مجاهر بالرأى ، أو متخوف . .
والشعب من طـول احتلال بلاده . . ومن انتهاك حقوقه . .
لا يطمئن لهامس تجـرى الدسيسـة فى صميم عروقـه !

* * *

لكن أحمـد راح ينطـق بالحديث على السجية واقفا
إن أعلن المذياع نصر الجيش ، راح مصفقا أو هاتفا
وتحدث الحر الجرئ فقال :

« هذا الجيش ثار محطما ..
كالعهد قدما من عرابى .. من سوى جيش الحمى يحمى الحمى ؟
ولسوف يحدث فى غد مالم يكن أحد يظن ، وينتظر ..
فالله يحمى الجيش .. يحمى الشعب .. يحمى زحف مصر المنتصر ! »

* * *

وتوالت الأيام مسرعـة ، تضيف غـرائبا لغرائب
والنـاس تسمع ما يقال ، ولا تحقق صادقا من كاذب ..
وأتى صباح السبت بالأنباء .. فالإسكندرية صاخبه ..

لكن رأس البر لاتدرى .. وأحـــداث الحى متعاقبه
حتى أتى الميعـاد . . وانطلقت هنـاك مع الغـــروب القنبله
وتحدث المذياع . . يعلنها لمصر على الزمان بجلجله . .
وتحدث القوم النيام ، بأن طاغوت الزمان قد اندحر
وبأن مصر تخلصت منه .. وأن الجيش بالشعب انتصر !

* * *

وتحدث البطل الصغير إلى أبيه . . وكان دون العاشره
وكأنما هو قطعة وثابة من قلب مصـــر الثائره . .
ولذلك اشتعلت جوانحه ، وراح من الحماســـة ينتفض
ويتابع الأنبـاء مذهلة .. يؤيد تارة أو يعترض ..
ويقول :

« يا أبتاه .. من ثوارنا؟ »

فيجيب :

« أبطال الحى ! »

فيعود يسأله :

« لماذا ثار يا أبتاه .. أبطال الحى ؟ »

فيجيب :

« حتى يهزموا أعداءهم ! »

فيقول :

« من أعداؤهم ؟ »

فيجيبه :

« أعداؤهم كثر ! »

فيسأله :

« وما أسماؤهم ؟ »

فيجيب :

« يا ولدى » ، ألم تسمع؟ فأولهم هو الملك الطريد ! »

فيقول :

« والثانى ؟ أليس هو الدخيل ؟ أذاك جبار عنيد؟
قد ثار أبطال الحمى .. لم يا أبى لايطردون الانجليز؟
لن تستقيم أمورنا .. حتى يطهر منهم الوطن العزيز ! »
حتى إذا ما ضاق والده لكثرة ما أجاب ، وما سأل ..
سأل الصغير ملاطفاً :

« ماذا اقتراحك أنت ؟ »

قال :

« إلى العمل ! »

وتململ البطل الصغير .. وقال :

« ليس لنا مقام ها هنا . .
أبتاه .. فلنرجع لمصر مجاهدين ، لتستقل بلادنا .. »

* * *

ومضى القطار مع الصباح ، مصفراً .. يشتد نحو القاهره
وأطل أحمد منه ، مبتهجا .. على مرأى الحقول الناضره
قال :

« أنظرى سلوى .. فهذا كله أدنى تفاتيش الملك ! »

قالت :

« وما هو ؟ »

قال :

« هذا كفر سعد .. بات رهن الممتلك »

قالت .

« ومن ذا سوف يملكه »

فقال لها :

« أتنكر صاحبه ؟ »

فلاح مصر ؟ وهل ينال الحق إلا من يؤدى واجبه ؟ »

وتحدثا عن شعب مصر الحر ، والأمل العريض المنتظر

لكن أحمد قال :

« ياسلوى .. هناك الانجليز .. وهم خطر ..

لابد من إجلائهم عن أرضنا .. فهم هم .. أعداؤنا ..

أفهل نسيت من الحديث وصية .. أوصى بها شهداؤنا ؟! »

قالت ، ونور الحق يملأ مقلتيها بالشعاع الثاقب ..

« اليوم يسهل أن يتم عن البلاد جلاء هذا الغاصب ! »

وأجاب أحمد :

« كيف ؟ »

قالت :

« لم يعد عرش هناك يسانده

والشعب بالجيش استعز .. وشمرت يوم الفداء سواعده

وأظن معركة ستنشب بالقنال ، رهيبة ، لجلائه ..

لن يصبر الشعب الأبى ، على احتمال الذل ، من أعدائه ! »

(١٥)

الجيل الصاعد

أخبار هذى الثورة الغراء صحف الحق ينشرها المدى
ولسوف يبقى نورها فى كل صدر ، مشرقاً ، متجدداً ..
فهى التى قد صححت أوضاعنا .. وأتت لنا بالمعجزه
وهى التى قد أنجزت حر الطلاب لنا ، ونعم المنجزه ..
إن عدت الثورات ، فهى الثورة البيضاء ، وهى الراشده
ولها من الأعمال آيات ، على حسن التصرف شاهده ..
ولها سجل حافل بالباقيات الصالحات على الزمن ..
لكن أعظم ما يسجله لها التاريخ .. تحرير الوطن !
فلقد أقام الانجليز بمصر أعوام احتلال ظالمه
أربت على السبعين .. والدنيا كأقطاع الظلام القاتمه ..
ولها وعود بالجلاء .. هى الخداع .. ولاجلاء عن البلد
حتى المحالفة التى أمضوا .. أرادوا أن تدوم إلى الأبد[1]
وسياسة المحتل فى كل العصور شعارها : فرق تسد ؟
والشعب فى الأوهام ، والحزب المقرب بالحكومة ينفرد ..
فمن الذى سيقاتل المستعمرين ؟ وبالسلاح يحارب ؟
إن لم يهب الشعب متحدَ الصفوف .. فكيف يجلو الغاصب ؟

* * *

(١) الإشارة إلى معاهدة ١٩٣٦ التى كانت تنص على قيام محالفة أبدية بين المغلوبين على أمرهم وبين المستعمرين !

وأتى صباح الاربعاء[1] وهبت الآجيال من غفلاتها ..
لترى الطليعة ، وهى تقتحم الزمان .. بعزمها وثباتها ..
وترى وجوه المؤمنـــين .. كأنها غرر الشموس المشرقه
وترى قوى الشعب المجيد ، على قوى أعدائه متفوقه
وترى كتيبة منقباد .. ويوم فالوجا .. تشق طريقها
وتهز أركان المـــدى .. فالله يحمى حزبها وفريقها !
دوى النفير .. وراحت الأعداء ، كالأصنام ، تهوى من علِ ..
ومشت جموع الشعب واثقة .. تدوس خصومها بالأرجل ..
وتقدم التاريخ يكتب ما يشـــاء .. مقلباً صفحاته ..
إن كان عندك ما يقال ، مصححا ما زوروه .. فهاته !
أما أنا .. فلدى من ذاك الكثير .. وليس هذا موضعه !
لكن أعظم ما لدى هو الجلاء .. وقرب يوم الموقعه !
ومعارك الشعب العنيفة بالقنال .. ونارها ودخانها
وعذاب أمة الاحتلال على يديه .. وذلها وهوانها
والثأر للتل الكبير .. هناك فوق تلاله ، وسفوحه ..
ودماؤها تجرى عليه .. وجلدها فى نزفه ، وقروحه ..
ومجىء ساستها لمصر .. يوقعون وثيقة بجلائهم ..
هى عندهم أولى الوثائق ، يخلطون مدادها بدمائهم ..
وخروج آخر مستبد . . دنست أقدامه أرض الحمى
وافته باخرة الهوان . . ببور سعيد . . فراح يعلو السلما[2]
وأقيم حفل بالضحى ، مشت الجموع إليه ، والشعب ازدحم
وأتى «جمال» . . فقبلَ العلم العزيز . . وراح يرتفع العلم !

* * *

(١) هو يوم الأربعاء ٢٣ يولية عام ١٩٥٢ .

(٢) الإشارة إلى انسحاب الانجليز الأول من بورسعيد تنفيذاً لاتفاقية الجلاء في ١٨ يونيه عام ١٩٥٦ .

بدت الصغيرة ياسمين جميلة ، وبدت شقيقتها أمل ..
والأوسط الفرد المرجى . . صابر . . بالبندقية منشغل
أبناء أحمد . . يلعبون ، ويمرحون ، فهم بهاء المجلس
وهناك فى الصالون سلوى أقبلت تزهو بأفخر ملبس
ومضى يحدثها فقال :

« عجبت يا سلوى لأمر ، فاعجبى
من كان يحسب ذا الفقار .. أخاك . . سوف يحوز أعلى منصب ؟
ويكون صنو القادة الأحرار .. ملحوظ المكانة بينهم ؟ »
قالت :

« لقد ضحى وجاهد ذو الفقار . . فكيف يوضع دونهم ؟
قد كان من أبطال فالوجا .. وهم بالحق أبطال البلاد ! »
فأجاب مبتسما :

« ولا تنسى .. فقد أدى اليمين بمنقباد ! »
قالت وقد غمزت له بالعين :

« كل أمور دنيانا عجب ..
أو لم تجئه هدى . تحاول أن تقابله . . وتلحف فى الطلب ؟ »
فشت على الوجه الحزين سحابة الذكرى . . وقال :

« نعم ، هدى
جاءت لتشفع عنده . . لكنما ضاعت شفاعتها سدى[1]
فوفق الدين الشريف أصابه حكم القضاء مؤبدا ..
وغدا عميل الإنجليز اليوم ، مسلوب الثراء ، مجردا .. »

---

(١) أى لتشفع هى عن زوجها لدى ذى الفقار .

قالت له سلوى ، وقد راحت تقهقه :

« هل سمعت بما جرى
إذ راح يُذكرِها شقيق ذو الفقار .. وقد أبت أن تذكرا ..
ويقول « هل تتذكرين معوض الحمال ، حين تنكرا »؟؟ .
قد كان أعجب موقف لأخي ! »

فأطرق زوجها وتفكرا . .

قال :

« افرحى سلوى ، فإن أخاك أدرك أجره وثوابه ! »

قالت :

« وعباس ابن عمك . . هل نسيت جهادَه وعذابه ؟
أنسيت كيف مضى لفالوجا .. وكيف اختاره عبد العزيز ؟
أنسيت معركة القنال .. وكيف راح بها يصيد الانجليز ؟! »

* * *

وتحدث المذياع ، وارتفع الخطاب على الحديث الدائر
هرعَ الجميع ليسمعوا فذ البيان من الزعيم الثائر
وأتى من الاسكندرية . . من بعيد . . صوت عبد الناصر
ليهز أوتار القلوب . . كأنه صوت الخضم الهادر ..
ويحدث الشعب الأبى .. بأمر « دلسبس » اللئيم الماكر
وبقصة الشهداء .. إذ حفروا القنال ، بأدمع ، وأظافر
وخيانة اللصّ الذى نهب الحمى ، ومضى بمال وافر
وهزيمة المستعمرين ، أمام زحف الثورة المتكاثر ..
وقرار تأميم القنال ، وكيف تم لشعبنا وضع اليد
وكأنما هى من جمال .. صفعة .. للأجنبى المعتدى ..
وهناك راح الشعب يهدر بالهتاف . . معبراً عن فرحته ..

وتوترت أعصاب أحمد .. والتقت نظراته مع زوجته
غلب السرور عليه .. حتى راح كل كيانه يتحرك ..
ومضى يعانق زوجه سلوى .. ويبكى ما يشاء ويضحك !

* * *

ما ذلك الحلمُ الرهيبُ .. يراه أحمد ليلةً فى نومهِ ؟
فيرى جنود الجيش خارجة تقاتل عن مكاسب قومه ..
ويرى المعارك ناشبات .. والرصاصُ بساحها متطاير ..
فيهب مذعوراً .. ويسأل ربه نصرا .. ونعم الناصرُ !
وتمر أيام ، ويأتى الجعفرية .. عابرا بالمسجد ..
وتقوده قدماه قبل الظهر ، تواً .. للمقام الأحمدى ..
ظهر المقام له من الزوار .. والحشد المرتل .. خاليا
فمضى يصليها صلاة الفتح .. فى ظل المقام .. ثمانيا .. (١)

* * *

وأتت ليالى الشر بالعدوان . . وانطلقت هناك الناعبه
صفارة الإنذار . . تتلوها القنابل ، ثرة ، متعاقبه .
وتطلع البطل الصغير ، وقال :

« إن الشعب يتبع قائده
هذا الحريق على المطار ، وتلك ألسنة اللهيب الصاعده ..
أبتاه ! قد جد القتال ، فهاتِ قنبلة لنا أو مدفعا ..
هجم العدو على الحمى غدرا . . وآن لشعبنا أن يدفعا . .
أبتاه ! هذا إيدن الجبار . . أقبل غاشما متهجما . .
ماذا يريد اليوم منا ؟ هل يريد الغر أن نستسلما . . ؟

---

(١) أدى النبى صلى الله عليه وسلم هذه الصلاة يوم فتح مكة ، وهى ثمانى ركعات متصلة ، يجلس بين كل ركعتين ، وقد أثر عن القائد خالد بن الوليد أنه كان يصليها عقب كل معركة يفتح عليه فيها .

وزلزل البنيان أجمع لانفجار القنبله
وتطايرت منها الشظايا حول صابر . . تبتغى أن تقتله . .
فجرى أبوه مسرعاً ، ليرده عن موقف فيه الخطر . .
وجرت إليه الأم صارخة . . وقالت :

« يابنىّ . . خذ الحذر ! »
قال الصغير مشمرا عن ساعد :

« لابد أن نحمى الحمى
الجيش فى سيناء . . فلننهض لبذل الروح ، أو بذل الدما . .
لنرد إسرائيل . . حتى لا يدنس رجسها هذا الثرى ..
وترى فرنسا بأسنا . . وتذوق حر سلاحنا . . انجلترا . . »
قالت له الأم الشفيقة :

« يا بنى ! أأنت تهزم هؤلاء ؟ »
فأجابها فى قوة :

« أماه ! إنا قد ظفرنا بالجلاء . .
فلذاك نرفض أن نضيعه ، ونرفض أن نعود للاحتلال . .
جيل البطولة صاعد . . حر . . يسير وراء قائده جمال ! »

* * *

وتكلم المذياع ، ما بين المعارك ، والرصاص يدمدم . .
فأتى بصوت جمال ، وهو يقول :

« لا نعطى ، ولانستسلمُ ..
سنحارب الدخلاء ، صفا ، ليس فيما بيننا متخاذل ..
سنقاتل العدوان ، بالعزم الأبى ، على المدى ، سنقاتل ! »
وإذا بذاك الطفل . . صابر . . وهو يهتف ، حاكياً عن قائده . .
ودموعه تجرى على خديه .. وهو مشمر عن ساعده ..

ويقول:

« يا أبتاه . . يا أماه .. لانعطى ولانستسلمُ . .
قد قال قائدنا جمال .. ونحن تحت لوائه تتقدم ..
سنحارب الدخلاء ، صفاً ، ليس فينا بيننا متخاذل
سنقاتل العدوان ، بالعزم الأبى ، على المدى . سنقاتل ! »

* * *

وتلفت الأبوان . . وابتسما . . وقد رأيا شجاعة صابر . .
نعم الشجاعة من صغير لم يزل فى مستهل العاشرِ . .
قالت له سلوى :

« سلمت بنى . . للجيل الجديد الظافرِ ! »
ومضى يقبلهُ أبوه . . وقال :

« عشت . . وعاش عبد الناصرِ ! »

تمت ملحمة الجلاء

دراسة تحليلية

قصة الجلاء

دراسة تحليلية

نظم الشاعر هذه القصة وهو ينظر إلى سلسلة طويلة من الأحداث الوطنية ، استغرقت من الزمن أكثر من عشرين عاما ، وقد شهد بعضها بنفسه ، وعرف بعضها الآخر بما كان يجرى حوله من أمور الناس والحياة . .

ويكاد يكون كثير من الشخصيات التى ورد ذكرها فى الملحمة ، قد عاش أصحابها فى تلك الفترة ، وشاركوا فى أحداثها ، ويبدو ذلك فى دقة تصوير هذه الشخصيات ، وحسن عرضها .

وتنقسم شخصيات الملحمة إلى قسمين :

١ — شخصيات حقيقية .

٢ — شخصيات مخترعة .

وسنقتصر فى ذكر الشخصيات الحقيقية على شخصيتين . أولاهما : شخصية القائد البطل ، والزعيم الملهم ، الرئيس جمال عبد الناصر . والأخرى : شخصية البطل الفدائى الشهيد أحمد عبد العزيز .

(١)
الرئيس جمال عبد الناصر

عند بدء الحوادث كان كل وطنى فى مصر يتطلع إلى أمنية الحياة لديه ، وهى تتمثل فى جلاء الانجليز عن أرض الوطن . ولذلك كانت أمنية الجميع أن يظهر القائد ، الذى يقود الشعب إلى التحرير فى الوقت

المناسب . وقد جربت البلادُ أنواعاً من الزعامات السياسية ، لم يصنع أفرادها شيئاً أكثر من أنهم أوقعوا أبناءها فى المنازعات الحزبية ، حتى تفرقت بهم السبل . وفى هذه الأثناء ظهر الرئيس جمال عبد الناصر.. ولكنه لم يكن فى ذلك الوقت سوى واحد من أفراد الشعب الذين تصدوا لخدمة القضية الوطنية ، ولذلك رمزت إليه الملحمة ، فى تلك الفترة المبكرة من الشباب ، باسم « الفتى المرموق » . .

وأول ما يظهر « الفتى المرموق » فى الفصل الثامن من الملحمة ، فى منقباد ، والليل ضارب أطنابه ، وقد اجتمعت فئة من شباب الجيش حول زعامته الرشيدة المبكرة . . فراح يشرح لها شرحاً مستفيضا أحوال البلاد السيئة تحت حكم الاحتلال ، وضعف الجيش ، وفساد الحياة السياسية ، وهوان أمر الشعب على نفسه ، حتى أصبح « شعباً بغير إرادة » . . ويتساءل :

« إن يكن بعثُ الإرادةِ ممكنا ؟ »

ويقول فى استنكار :

« شعبٌ بغير إرادةٍ . . ماذا يكون ؟ وكيف يصمد للعدا ؟ »

ثم يمضى فى الحديث إلى غايته . ويسأله أصحابه عما يقترحه حلاً ومخرجاً ، وإذا به يفاجئهم بإحدى حكمه الهادئة الرزينة . . قائلا :

« تلك هى اللغاتُ بلفظها تتكلمُ . .

إن أنتَ خاطبت امرؤا يوماً بغير لسانهِ . . هل يفهم ؟ »

وعندما يجيبونه بأن ذلك غير ممكن ، يلقى بينهم بقرارهِ الحاسم الخطير . . فيقول :

« لغة العدو مع العدو . . هى السلاح . . ولا تفاهم غيرها ! »

ويعود « الفتى المرموق » للظهور مرة أخرى ، فى آخر الفصل الثانى عشر ، فى الفالوجا . . حيث يجلس هناك مع أصحابه ، فى الربيع ، على

شقير الخندق ، يحدثهم . بقضية الوطن ، وما وصلت إليه الأحوال ، في بساطة وعمق وإيمان . ويختم حديثه لهم بقوله التاريخي المأثور :

« هي عقدة ليست تحلُّ هنا . . ولكن حلها في القاهرة ! »

ولا تعود هذه الشخصية للظهور بعد ذلك ، ولكن في الفصلين الأخيرين تتوالى أحداث الثورة ، منذ قيامها في ٢٣ يولية ١٩٥٢ بقيادة البطل جمال عبد الناصر .. حتى وقوع العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ .. ويسمع في نهاية الفصل الأخير صوت الرئيس جمال عبد الناصر نفسه ، بين ضجيج المعركة . آتيا من المذياع ، يقول في ثبات :

« سنحارب الدخلاء صفاً .. ليس فيما بيننا متخاذل
سنقاتل العدوان ، بالعزم الأبي..على المدى..سنقاتل ! »

(٢)

الشهيد أحمد عبد العزيز

وفي الفصل الثاني عشر ، تظهر شخصية البطل الفدائي الشهيد ، أحمد عبد العزيز .. قائد كتائب الفدائيين في حرب فلسطين ، عام ١٩٤٨ .

وتصور الملحمة هذه الشخصية على طبيعتها ، من طيبة النفس ، ودماثة الخلق والإيمان بالله ، والإخلاص للواجب .

وهو أروع مايكون حين يدفع جنوده إلى الميدان ، في كنف أشجار الزيتون ، ومروج الكرم .. لينطح المستعمرات الاسرائيلية بكتائبه ويزلزل الارض تحت أقدامها .. وهو لايفتأ يظهر على الطريق ، يشجع ويحرض ، ويبارك ..

« من دير ماريا ، تسير إلى الخليل ، وبيت لحم فرقته
وتزلزل الأرض المقدسة الحبيبة ، حين تظهر قوته ..
أبداً تراه على الطريق ، مشجعا ، ومحرضاً ، ومباركا ..
وإذا دنا منه العدو .. تراه ليثاً بالسلاح مشاركا .. »

وتتتابع هذه الصور .. والبطل فى موقفه .. عائد من توديع أحد أشباله .. يسير على الطريق إلى المعسكر وحده .. يرمى بمقلته إلى أقصى الفضاء .. ويتنهد .. وتتقبض يده على غدارته .. ويتذكر الوطن ويسائل نفسه .. « ماذا يقولون عنا هناك ؟ » .. ويجيل نظرة فى المكان نظرة أخيرة .. للمقعد الحجرى فوق الطريق..والأزهار اليانعة تحيط به من كل جانب .. ويخاطب نفسه :

« أجل .. هنا قبرى وتمثالى .. كذا يجزى البطل ..
والمقعد الحجرى .. راحة زائر ، أو قاصد .. صعد الجبل ! »

ثم يعود ، بعد الغروب ، ماراً وسط حدائق الزيتون ، وقد أخذت الطيور تعود إلى أوكارها .. وهناك بين المروج .. ينسى كلمة السر اللعينة .. ويتكلم القدر الرهيب .. وتنطلق الرصاصة الطائشة .. رحمه الله !

* * *

فإذا نظرنا إلى الشخصيات المخترعة .. فربما ظهر لنا لأول وهلة أن شخصية أحمد ، هى الرئيسية بين تلك الشخصيات لأن حوادث الملحمة تدور حولها فى الغالب . ولكن إذا انعمنا النظر وجدنا شخصيات غيرهما أكثر فعالية فى حوادث جلاء الإنجليز عن مصر ، مثل شخصية ذى الفقار مثلا ..

على أن النظرة الفاحصة تبين أن شخصية أحمد، وإن كانت تمثل دوراً رئيسيا حقا من أدوار الملحمة ، إلا أنها لا تمثل هذا الدور بمفردها ، ولا تنفصل فيه عن شخصيات غيرها إن شخصية أحمد تمثل الجيل الثالث من بين أربعة أجيال مثلتها أربع شخصيات هى الجد والوالد ، والولد ، والحفيد

(١)

الجـــد

يمثل الجد الجيل الأول ، فقد شهد الثورة العرابية ، وروى أحداثها بذاكرة واعية وقال إنه شارك في معاركها ببندقيته ، وأنه صوبها إلى الإنجليز في معركة التل الكبير ، واصطاد بها اثنين من جنودهم .. ونسب الخيانة إلى الخديو توفيق ، وذكر وقائع محددة طريفة ، مثل حديثه عن سيمور ، قائد الأسطول الانجليزى مثلا .. حيث قال عنه :

« وبدت أساطيل العدو يقودها سيمور .. ذاك الأحمق .

ويقول والمنظار فوق المقلة العوراء .. هيا أطلقوا ! ..

وتبدو فى هذا الجد أيضا بساطته الريفية ، واعتقاده فى الأولياء ، مع جهل يكسوه ثوب العلم ، حين راح يؤكد لحفيده فى غضب ما يزعمه من أن هناك وليا من كبار الأولياء مدفونا فى ساحة الازهر .. ويسميه « الأزهرى » ! وهى نكتة لها نظائرها ، ووضع له مايشبهه فى الريف ، وبخاصة فى ذلك الوقت الذى أطبق فيه الجهل ، وحجب عن الناس نور العلم والعرفان ..

(٢)

الوالـــد

وهو « نور الدين » . . ويمثل الجيل الثانى . . وقد جاء هذا الجيل بعد فشل الثورة العرابية ، وبدء الاحتلال مباشرة . . ولذلك نشأ فى ظل الخنوع والاستكانة واليأس ، مع شدة الخوف على المصالح الشخصية أن تضيع فى ظل النزعات الوطنية الهوجاء ، كما كانت تبدو لشخصيته المنحرفة . .

وتظهر حقيقة هذه الشخصية — التى كان لها نظائرها دون شك — فى تعنيف نور الدين لولده على وطنيته وأفكاره التحررية . . فهو فى الفصل الأول يرميه بأنه « مغفل » . . . و « مخيب » . . . ويردد القول بأن الإنجليز أقوى دولة فى الأرض ، وأن الشمس لا تغيب عن أملاكهم . . بينما يعود فى الفصل السابع ، خلال الحرب العالمية الثانية ، فيسب ولده مرة أخرى — بعد أن تخرج فى الجامعة — ويرميه بأنه « غبى » . . و « غشيم » . لأنه لم يدرك ، كما أدرك هو ، أنه ليست هناك حرب حقيقية ، فلا شىء فى نظره يدعى هتلر ، ولا شىء يدعى رومل ، وإنما هم الإنجليز الدهاة ، يصورون هذا للشعب فى مصر ، ليمعنوا فى إذلاله وإرهابه ، حتى يتوصلوا إلى استمرار إخضاعه ، واحتلال أراضيه . . .

ويفسر لنا حقيقة هذه الشخصية تفسيراً واضحاً ، شقيقه عبد الله ، فى الفصل الأول ، وهو يهدىء من ثائرة أحمد على أبيه . . إذ يقول للأخير :

« وأبوك — أحمد — وهو شيخ الجعفرية . . وهو عمدة خطها
لا بد يصطنع الدهاء ، لكى يشيد داره فى شطها ! »

على أن الملحمة تعود فى فصلها العاشر . فتعطينا صورة إنسانية رائعة ، لنور الدين ، وهو على سرير الموت . . والموت حكمه الرهيب . حيث يثوب الرجل إلى رشده ، ويعرف حق وطنه عليه ، ويملى وصيته على أبنائه وأحفاده ، فاذا هى تتضمن المطالبة باليقظة التامة ، وعدم مهادنة أعداء الوطن ، مع تحديد هؤلاء الاعداء تحديداً دقيقاً ، يحصرهم فى ثلاثة هم : الإنجليز ، والعرش ، والإقطاع . .

(٣)

الولـــد

وهو أحمد . . ويمثل الجيل الثالث ، الذى عاش فى مصر فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ولم يشهد ثورة ١٩١٩ ، ولكنه شهد آثارها . ثم التحق بالجامعة عام ١٩٣٥ ، حيث شهد ثورة الشباب السياسية فى ذلك العام . . وشارك فيها مشاركة فعلية . . ووطنية أحمد فوق الشبهات . . وهى خط حياته الذى لم يحد عنه . . . وأروع مافيها مصاحبته لشهيد الجامعة الأول « صابر » . واستماعه لوصيته الخالدة قبل موته ، فى العبارة المأثورة ، التى راح الجميع يرددونها بعد ذلك ، ولم ينسها أحمد أبداً طوال حياته . . وهى قوله :

« الإنجليز . . هُمْ هُمْ أعداؤنا . . »

على أنه إذا كان أحمد قد شارك فى أحداث ثورة ١٩٣٥ . فإننا نراه فى الملحمة يواصل عمله الوطنى بعد ذلك فيسعى فى إنقاذ صديقه الفدائى ذى الفقار ، إبان الحرب العالمية الثانية . . وقد كان الأخير من ضباط الجيش الذين تعرضوا للاعتقال والسجن والتعذيب . .

كما نراه قبيل الثورة الكبرى ، فى عامى ١٩٥٠ ، ١٩٥١ ، وهو يطبع المنشورات فى مطبعته الخاصة ، ويوزعها داعيا إلى جلاء الإنجليز ، ونشر العدالة الاجتماعية فى مصر . . معرضا نفسه للسجن مرة أخرى ، وذلك بعد أن جاوز الأربعين من عمره وأصبح أبا لثلاثة من الأبناء . .

وثم ناحية إنسانية فى شخصية أحمد . . فقد رضى عن طيب خاطر أن يقترن بسلوى . شقيقة ذى الفقار . وهى دونه ثقافة ، إذ لم تتخرج

فى الجامعه مثله . . وذلك لما عرف من وطنيتها الصادقة وفدائيتها المنقطعة النظير .

وبزواج سلوى من أحمد ، بدأ الجيل الرابع ، ممثلا فى ولدهما الصغير صابر . .

(٤)

الحفيد

وهو صابر « الصغير » . ويمثل الجيل الرابع ، هذا الجيل الذى أدرك الثورة وهو فى السادسة ، وأدرك العدوان الثلاثى وهو فى العاشرة .. وهو الجيل الصاعد ، الذى تعقد عليه البلاد كبار الآمال . . وتدرك الملحمة ممثل الجيل الصاعد ، وهى تقترب من نهايتها .. ولكنها مع ذلك تعطى عنه فكرة كافية ..

فى الفصل الرابع عشر يظهر صابر « الذى سماه والده باسم زميله الشهيد إحياء لذكراه » فيستمع إلى نبأ قيام الثورة ، عن طريق المذياع ، وهو ينتقض من الحماسة :

« وكأنما هو قطعة وثابة من قلب مصر الثـــائره ! »

ويروح يناقش والده مناقشة طويلة دقيقة عن هؤلاء الثوار من هم ؟ ولماذا ثاروا ؟ ومن هم أعداؤهم ؟ وماهى أسماء هؤلاء الأعداء؟ ولماذا لايطردون الانجليز أيضاً من مصر ، ماداموا قد أعلنوا الثورة ؟ .

وفى الفصل الخامس عشر يقف البطل الصغير صابر ، مرة أخرى ، يسخر من العدوان ، ولا يبالى بالقنابل المتساقطة من حوله .. مردداً قول الرئيس جمال عبد الناصر الذى سمعه من المذياع منذ حين ، ومخاطباً والديه فى عزيمة صادقة ، بقوله :

« إنا قد ظفرنا بالجلاء . .

فلذاك نرفض أن نضيعه . . ونرفض أن نعود للاحتلال
جيل البطولة صاعد . حر . . . يسير وراء قائده جمال ! »

* * *

وثم شخصيات أخرى غير هذه الشخصيات الأربع ، لا تقل أهمية عنها .

(١)

ذو الفقار

لا يمكن إنكار هذه الشخصية ، بين شخصيات الملحمة . فهى تسير فى خط متواز مع شخصية أحمد ، وقد كان صاحبها طالبا فى كلية الحقوق ، ثم آثر أن يتركها ، ويلتحق بالجيش ، ليعمل على رد حقوق الوطن الضائعة . . تتحدث عنه الملحمة فى فصلها السابع . . فتقول :

« نعم الملازم ذو الفقار . . فإنه فى كل خطب يقتحم
ترك « الحقوق » لغيره . . ومضى ليثأر للحقوق وينتقم . .
لحقوق مصر على المدى ، فى أن تسود ، وتستقل ، وتنتصر
فى عصبة . . كتبوا وإياه صحيفة الانطلاق المنتظر . . »

وهذا نفسه مما يضفى على هذه الشخصية أهمية خاصة . فهذه الطريق هى ذات الطريق التى سلكها الرئيس جمال عبد الناصر فى شبابه ، حين ترك كلية الحقوق ، والتحق بكلية أركان الحرب ، ليعمل على تحرير الوطن عن طريق الجيش . .

ولا تخطىء الملحمة الإشارة إلى أعمال ذى الفقار المجيدة ، خلال الحرب العالمية الثانية ، وردوده على شقيقته سلوى فى ذلك الحين تدل على أنه كان متصلا بتنظيم سرى يعمل فعلا لمصر ، وخلاصها من الانجليز .

على أن صورته الواضحة كل الوضوح تظهر فى مفتتح الفصل الحادى

عشر الذى تحدث عن عهد الإرهاب .. حيث تقول الملحمة :

« مضت السنون ، وذو الفقار يفر من سجن ، ليدخل معتقل..
طورا يعود إلى كتيبته .. ويقطع تارة صخر الجبل ! ؟

ثم تصوره وهو يتخفى من « القلم السياسى » . وينتهب الذخيرة من مخازن الجيش الانجليزى ، ليسلمها إلى الفدائيين ، لاستعمالها فى حوادث المترو ، والسينما ، والأندية الليلية ، التى كان يروح ضحيتها كثير من جنود الانجليز يومئذ .

ويظهر فى نهاية الملحمة أن ذا الفقار . كان من أبطال الفالوجا .. كما أنه كان ممن أقسموا القسم فى منقباد ، ولذلك بلغ بين رجال الثورة منزلة ودرجة .

(٢)

عباس

كذلك لا يمكن انكار شخصية الفدائى الشاب عباس ، ابن عم أحمد الذى شهد يوم القنطرة الثانى (كوبرى عباس) عام ١٩٤٧ .. ثم التحق بجموع الفدائيين التى ذهبت إلى فلسطين فى العام التالى ، حيث اتصل بالشهيد أحمد عبد العزيز ، وأبلى بلاء حسناً ، حتى كان يختاره البطل قائد الفدائيين رسولا بينه وبين رجال الجيش النظامى فى الفالوجا ..

وآخر موقف يظهر فيه فى الملحمة ، هو موقف الوداع بينه وبين قائده الكبير ، الذى راح يتابعه بنظره وهو منطلق قبيل الغروب بين أشجار الزيتون والكرم من أرض فلسطين الحبيبة .. فيشيعه بدموع عينيه .. ويلاحقه فى إيمان عميق هاتفاً :

« باركه يارب ! »

كذلك يظهر فى الفصل الأخير أن عباساً شارك فى جهاد آخر مجيد ، وذلك حين تتحدث عنه سلوى إلى أحمد . فتقول :

« أنسيت معركة القنال . . وكيف راح بها يصيد الإنجليز ؟ »

* * *

وفي الملحمة شخصيات نسائية ، أهمها شخصيتان :

(١)

هدى

شاركت هدى في أحداث الجامعة ، عام ١٩٣٥ ، إذ كانت بين طالباتها ، فنراها تخطب الشباب وتحمسهم عقب تصريح هور المشهور .. وهو موقف غير مسبوق .. فهي فيه رائدة :

« تدعو الأبية ، والأبي ، إلى الجهاد ، إلى الدماء ، إلى العلى ! »

وهي ترى أن رسالة الفتاة لا تقتصر على تحصيل العلم وحده ، ولكنها تمتد إلى الدفاع عن الوطن ، والقتال في سبيله عن طريق الحرب ذاتها ، لافرق في ذلك بينها وبين زميلها الشاب :

« إن الفتى لمحارب يحمي الحمى .. وكذا الفتاة محاربه »

على أن نهاية الفتاة في الملحمة لم تكن كبدايتها .. ولاعجب في ذلك فإن الحياة متشعبة المسالك ، والمرء فيها لايعرف ما يأخذ ومايدع ، وقد انساقت هدى وراء زواج مبكر ، من شيخ موسر ، في الخمسين ، إلا أنه جميل الطلعة ، يملك آلاف الفدادين :

« ويقال إن الباشوية في الطريق إليه لا تتأخر ! »

فلماذا تلام فتاة على مثل هذا الزواج ؟ وماذنبها في أن حظها منه لم يكن خيراً كله ؟ فقد ظهر أن زوجها الثري كان بحكم موقفه ، عميلا للقصر والإنجليز ، ولذلك حكمت عليه الثورة بالسجن ، وجردته من أملاكه . .

« وغدا عميل الإنجليز اليوم مسلوب الثراء ، مجردا . . »

وجاءت هدى أخيراً إلى ذى الفقار لتشفع لزوجها عنده :

« لكنها راحت شفاعتها سدى ... »

(٢)

سلوى

أما الشخصية الجديرة بالتقدير حقا ، فهى شخصية سلوى — شقيقة ذى الفقار ، التى كانت منذ طفولتها المبكرة زعيمة وطنية رائدة :

« كانت بمدرسة البنـات الأولية . . والفصول الراقيه . .

للطالبـات زعيمة . . تدعو وتهتف وهى بنت ثمـانيه ! »

ولم تساعدها الظروف بإتمام تعليمها فى الجامعة . إلا أنها فاقت الكثيرات بوطنيتها ، وصدق بلائها فى الدفاع عن أمتها . .

وقد صورت الملحمة وطنية سلوى فى أروع صورها ، وهى تدافع عن صديقتها الشهيدة منى « التى كانت فى نفس الوقت شقيقة للشهيد صابر » .. حين اغتصبها جنود الانجليز السكارى ، وقتلوها وهى تدافع عن شرفها ، وتركوا جثتها بين المقابر . . هنالك راحت سلوى تسخر من أخيها ذى الفقار . . قائلة :

« لمتى انتظاركم ؟ أليس لمصر عهد عندكم ؟

جند الخليفة يغصبون نساء مصر .. وما رأينـــا جندكم ؟ »

ويظل ذو الفقار يراوغها ، لئلا يفصح لها عن أخبار المنظمة السرية التى يعمل بها ، ويقول إن لهم سياسات وتخطيطا سيظهران فى الوقت المناسب . . فتصب عليه سخريتها صباً ، حيث تقول :

« بل ذاك الكلام الفارغ . .

ولى زمان الهزل، هذى الحرب . . هذا جرح مصر البالغ ! »

ثم يهديها تفكيرها للعمل بمفردها، فتخترع سلاحاً فتاكا ، تروح تملأ له الزجاجات الفارغة بالرمل والبارود، وتلقيها على الانجليز من نافذة بيتها، حتى تسيل دماؤهم فى الطرقات . . ويشتهر عنها هذا السلاح الرهيب، ويستعمل فى كل مكان، وهو ما عرف يومئذ باسم « كوكتيل مولوتوف » . .

« وتوالت الأيام، واشتهر السلاح . . فكل كف تضرب

كوكتيل مولوتوف .. جند الانجليز بمثله لم يشربوا ! . . » !

وسلوى بعد ذلك كله ، زوجة وفية ، وصديقة مخلصة ، وأم رءوم .

* * *

ــ ولا نختتم هذه الدراسة التحليلية، دون أن نشير إلى ماحوته القصة من وصف لبعض الأحداث والمواقف والوقائع الهامة ..

ــ فهى تصف الانطلاقة الكبرى فى ٢٣ يوليه عام ١٩٥٢ :

« وأتى صباح الأربعاء : وهبت الأجيال من غفلاتها .. »

لترى الطليعة وهى تقتحم الزمان بعزمها وثباتها . . . »

ــ بل إن هذه الطليعة ذاتها كانت فى منقباد عام ١٩٣٨ تتلمس الطريق :

« نار على جبل الشريف توقدت ليلا بظاهر منقباد . .

هل تلك نار الدفء فى ليل الشتا . . أم أنها نار الجهاد ؟ ! »

ــ وإسرائيل صنيعة المستعمرين، ووليدة وعد بلفور البغيض :

« هى حلم الاستعمار فى أرض العروبة . . لاتحقق حلمه . .

هى وعد بلفور .. الذى قد جاد مما ورثته . . أمه ! »

— واليهود هم شر الخلق، وأصل المتاعب فى هذا العالم..

«لو تم اجلاء اليهود عن البسيطة .. لاستراح العالم..»

— وهم لا يعرفون دينا ولا ضميراً فى سبيل تحقيق أغراضهم:

«لادين يعرفه اليهود ولا ضمائر. للحصول على الذهب..»

— والعملاء هم شر الخلق، وإن كانوا من علية القوم ووجهائهم:

«شر الرجال .. وشر أصحاب الثراء .. وسفلة الوجهاء

من يدعون الباقيات الصالحات .. وهم من العملاء!»

— والشباب، هم الجيل الصاعد إلى المجد، خلف قائده الملهم الرئيس جمال عبد الناصر:

«جيل البطولة صاعد .. حر .. يسير وراء قائده جمال!»

* * *

هذه نظرات تحليلية سريعة فى ملحمة «الجلاء» وهى بعد قصة جديدة فى أسلوبها، جديدة فى موضوعها .. ولذلك فما أجدرها بالقراءة الجديدة، والنقد الجديد!

فهرس

تقديم : بقلم محمد عطا	٣
الإهداء	٥
مقدمة بقلم الشاعر	٩
١ — آباء وأبناء	٢٥
٢ — ثورة الشباب	٣٣
٣ — يوم القنطرة	٤٠
٤ — وصية الشهيد	٤٦
٥ — ثمن الجهاد	٥٢
٦ — عبث الشباب	٥٨
٧ — القيم المنهارة	٦٤
٨ — حديث الفتى المرموق	٧٣
٩ — لغة السلاح	٧٩
١٠ — جيل ينقضى	٨٧
١١ — عهد الإرهاب	٩٤
١٢ — متطوع فى فلسطين	١٠١
١٣ — حريق القاهرة	١٠٨
١٤ — نداء مع الفجر	١١٤
١٥ — الجيل الصاعد	١٢٢
دراسة تحليلية	١٢٩

الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ / ٤٢٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤

الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عتيبة - روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤

العدد ١٨٢ — الثمن ١٣ قروش

Bibliotheca Alexandrina
03552241